الثقافة

مجلة ثقافية أدبية تصدر في دمشق

دمشق - ص٠ب (٢٥٧٠) هاتف ٢٢٩٩٨٤

صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE

شباط

١٩٧٨

اعتــذار

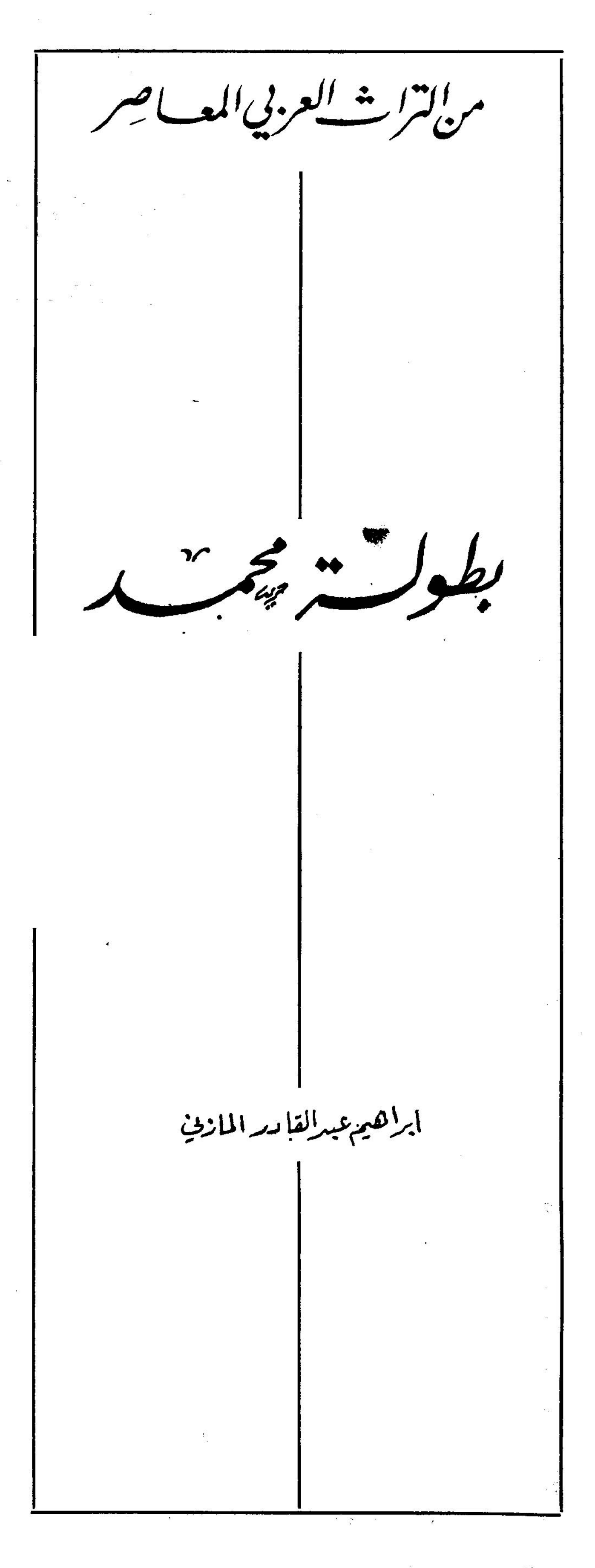
شهد الله ما كنا نتوقع أن يكون لاعداد (الثقافة) الخاصة سواء بالاعلام من رجالنا أو بـآداب الاقطار العربية الاخرى ، أن يكون لها هذا الاثر البعيد العميق في نفوس الناس جميعـا فقـد وصلنا من التقريظ والتأييد ما يجعلنا أكثر حرصا على الاستمرار في هذه الطريق التي رسمناها لانفسنا ٠

الا أننـا لا نستطيع الاكثار من هـذه الاعداد لمـا نلقى في اصدارها من صعوبات ومشقات يقدرها حق قدرها من يزاول مهنـة الصحافة الادبية ٠ لذلك نستميح قراءنـا العذر أولئك الذين يطلبون ويلحفون بالطلب ، ونعدهم بأننا سوف لانترك مناسبة الا ونقدم لهم فيها ما يريدون ٠

وبكل اعتزاز فان ادارة المجلة قد قررت اصدار عـدد آخر وفي الاشهر القليلة القادمة عن أدباء المملكة العربية السعودية نزولا عند رغبة الكثيرين ممن راقهم العدد الاول ووجدوا فيه ألوانا من الادب العربي جديـدة كانوا يحرصون كل الحرص على الاطلاع عليها والتعرفـ بهـا ٠

ولنا من وراء كل ذلك الامل الكبير في تحقيق الغاية المثلى التي نسعى اليهـا جاهدين في لقـاء الاخوة الادباء العرب على صفحات الثقافـة مهما تباعـدت أقطارهم وبعـدت بينهـم شقة الزمن ٠

رئيس التحرير



لا أعرف ــ ولا أحسب أن غيري يعرف ما يشبه ــ أو يقارب ــ بطولة محمد صلى الله عليه وسلم . ولست أنسى أني مسلـم ولكني مسلـم بالعقل قبل أن أكـون مسلما بالوراثـة والنشـأة . ولست أخشى أن أتهـم بالتعصب لصاحب هذا الدين . على أني لا أعني بالبطولة الشجاعة في الحرب ، والجرأة في الكر والفر ، والاقدام على مقارعة أحلاس القتال ومنازلة الاعداء في حومـات الوغى ، فما كان صلى الله عليـه وسلم يعنى بالاشتراك في القتال بسيف أو رمح ، وكان يشهد المعارك ويصحب رجاله ولكنه لا ينـزل الى الحومـة بنفسه ولا يخوض المعمعة مع أنصاره وان كان يوجههم .

وما كانت مزيته أنه أطعن الناس برمح ، أو أسدهم ساعدا ، وانما كان نبيا وصاحب دعوة ، ورسولا بدين ، ومعلما ومرشدا وهاديا ، وحسب من شـاء أن يقـدر بطولة محمد أن يتأمل حياته وسيرته لا في مكة وحدها بل بعد الهجرة منها الى المدينـة أيضا والى آخر حياتـه ، فقد جاء بدين ينقض كل ما قامت عليه حيـاة العرب في زمانه من عقائد وتقاليد وعادات وآراء ، ولا يرضي حتى أهله ، لانه يحرمهم مزاياهم وما كانوا ينعمون به من عزة في الجاهلية ولـم يجد من يؤمن بـه وبرسالته الا قلة لا غناء لها ، ولقي من الضيم والعذاب والاذى والمطاردة والاضطهاد ، ما لم نعهد في البشر اطاقته والصبر عليه ، وحوصر في الشعب ثلاث سنين بلا أمل أو نصير ، وقاسى من المحن أقسى ما يخطر على البال ، ومع ذلك لـم يلن ولم يضعف ، ولم يكد يخرج من هذا الشعب حتى مضى وحده وبمفرده الى الطائف يدعو الى ترك الاوثان والى عبادة الواحد الاحد ، فلم يقابل بغير الاهانة والزراية من الكبراء ، والرمي بالحجارة من الصبية والجهال ، حتى سال منه الدم فعاد الى مكـة لا يائسا بـل مواصلا بث دعوته وتبليغ رسالته ، وظـل صابرا مواظبـا محتملا ما يلقى في سبيل الله من الاذى البليغ والعنت الشديد ثلاثة عشر عاما من يوم تلقى الوحي . ولما اعتزم الهجرة بعد أن مهد لها لم يخرج الا بعد أن رحل عن مكة معظم أنصاره وأمن واطمأن عليهم ، ووثق بنجاتهم وسلامتهم ، وهذا ثبات كان خليقا وحده أن يقنع الذين كتبوا عنـه من الاجانب بأنه لا يمكن ولا يعقل أن يكون من « دجال »

كما وصفه بعضهم .

وقد كتب « واشنطون ايرفنج » عن بواعث محمد يقول : « أكانت الثروة ؟ لقد أفاده زواجه من خديجة الغنى ، فظل سنوات قبل الوحي لا يبدي رغبة في زيادة ثروته . أم كان يطلب المنازل الملحوظة ؟ لقد كانت منزلته عالية في قومه ، وكان معروفا بينهم بالفضل والامانة ، وكان من قريش ومن أكرم فرع فيها ، وكانت سدانة الكعبة وما تفيده من العز والسلطان في أسرته منذ أجيال ، وكان من حقه أن يتطلع اليها ، فلما قام يحاول أن يهدم الدين الذي نشأ عليه قومه اقتلع جذور هذه المزايا جميعا ، فقد كانت ثروة أهله ومنزلتهم قائمتين على هذا الدين فهاجمه وجر على نفسه عداوة أهله وغضب مواطنيه وسخطهم جميعا » .

ويمضي ايرفنج في تقصيه فيسأل : هل كان هناك في بداية سيرته النبوية ما يبعث الامل أو يعوض هذه التضحيات ؟ ويرد على ذلك فيقول : ان الامر كان على النقيض ، فقد بدأ محاذرا متوخيا الكتمان وظل سنوات غير موفق ، وعلى قدر توسعه في بث دعوته ، واذاعة رسالته ، كان يشتد ويعظم ما يلقى من العنت والسخرية والاذى والاضطهاد ، واضطر بعض أهله وأنصاره أن يفروا الى بلاد أخرى ، واحتاج هو نفسه آخر الامر أن يهاجر الى بلد غير مكة ، فلماذا كان يصر كل هذه السنوات الطويلات على « دجل » يسلبه كل متاع الدنيا في سن لا تسمح بأن يبدأ المرء حياته مرة أخرى ؟ فما قام بالدعوة الا بعد الاربعين وقضى في مكة ثلاثة عشر عاما ، وكان تاجرا حسن الحال فهاجر منها فقيرا معدما لا يعرف ما كتب الله له في غيبه من النصر ، ولا يبغي أكثر من أن يبني مسجدا يعبد فيه ربه ، ولا يرجو الا أن يعبد الله في سلام . ولما جاءه النصر لم يتكبر ، ولم يتجبر ، ولم يفتر ، كما يفعل الذين ينشدون المآرب الشخصية والغايات الخاصة ، فحافظ ، وهو في أوج قوته ، على بساطته أيام ضعفه .

وقد جاءه نصر الله بعد الهجرة ، ولكن الايام لم تجر كلها بالسعود في المدينة ، واذا كان قد انتصر كثيرا فقد انهزم أحيانا ، فلا النصر أبطره ، ولا الهزيمة أضعفت روحه أو فتت في عضده . ولعل القدرة على احتمال النصر أدل على العظمة من القدرة على احتمال الخيبة ، ولكنه لم يكن من الهين على من احتمل مثله ثلاثة عشر عاما من المتاعب أن يصبر على هزيمة جديدة .. وكان عليه أن يضع للجماعة الاسلامية في المدينة النواميس والنظم في السلم والحرب . وهو فيما أعلم الوحيد الذي بلغ الرسالة كلها ، وأتم عمله أجمعه في حياته ، فأكمل الدين ، وأسس الدولة ، ووضع القواعد كلها ، ووجه الامة الجديدة الوجهة التي فيها الخير والصلاح والعز ، وليس لهذا مثيل في التاريخ ـ قديمه وحديثه ـ

وهنا ينبغي أن نذكر أن مسافة الزمن التي تم فيها كل هذا كانت قصيرة جدا ، وأن دينه كان جديدا ، يخالف كل ما وجد عليه العرب . وفي هذه المدة الوجيزة لم يغير للعرب عباداتهم وحدها بل غير نفوسهم أيضا . ولا شك أن صرف امرىء عن عبادة حجر أو نحوه أهون جدا من صب النفس في قالب جديد . وقد خلق من هؤلاء العرب المتنافرين المتعادين المتهالكين رجالا يعدون في طليعة أبطال العالم . وماذا كان هؤلاء جميعا خليقين أن يكونوا لولا محمد ؟ ونعني بهم أبطال التاريخ الاسلامي من مثل الخلفاء والولاة والقواد والفقهاء ... أكان أحد يمكن أن يسمع بهم ؟؟ لا أظن ! ولا شك أنهم كانوا خلقاء أن يكونوا شيئا مذكورا بين قومهم ، ولكن قومهم أجمعين لم يكونوا شيئا . وما قيمة قوم انقسموا قبائل متعادية لا أثر لها في الحياة ، ولا يعبأ بها حتى من يجاورها من الامم ؟ ومن هذه العناصر خلق محمد أمة عظيمة فتحت الدنيا ، ونشرت الدين ، وأهدت الى العالم حضارة كبيرة غيرت مجرى التاريخ الانساني كله .

ولا يتسع المقام للافاضة في هذه المعاني ، ومن أجل هذا أكتفي بأن أقول ان محمدا أعظم عظيم خلقه الله . وأزيد على هذا أني كنت في صدر حياتي أستهجن قول من يقول ان العرب خير الامم وأفضلها ، وأرى ذلك من الغرور ، ولكني الآن صرت أعذر من يقول هذا . ولست مغرى بالمفاضلة بين الامم ولا أنا أرى داعيا لهذا ، فان كل أمة تؤدي في الحياة رسالتها على قدر طاقتها ، ولكن أمة تنجب محمدا ، هل يلام من يقول انها أعظم الامم ؟

احاديث في الادب المصري

الدكتور طه حسين

(المحامي)

ثروت أباظه

عميد الادب العربي ولعل هذه التسمية هي اصدق ما يطلق على الاستاذ المعلم الفنان الدكتور طه حسين . وقبل ان نلقي نظرة على الطفرة التي حققها العميد للادب العربي نتعرف أولا على شخصيته .

هو من مواليد ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٩ ولد بقرية تسمى الكيلو بمحافظة المنيا . وقد سميت الكيلو لانها تبعد مسافة كيلو متر واحد عن مركز مغاغه .

وطه حسين هو الولد السابع بين اخوة يبلغ عددهم خمسة عشر أخا بين شقيق وغير شقيق .

وفي السادسة من عمره اصيب طه حسين بالرمد وفي ظل الجهل الذي كان ينشر اجنحته على الريف المصري فقد عميد الادب بصره وهو في السادسة من عمره . والله وحده يعلم ماذا كان سيحدث للاستاذ العميد لو لم يفقد بصره ... اتراه كان سيسير في نفس الطريق أم كانت ستلهيه الحياة المرئية عن الحياة الروحية . أتراه كان سيتخذ في الحياة سمة غير الادب ويوغل في الحياة المبصرة الحسية . أم كان سيظل اديبا . الله وحده يعلم . ولكن المؤكد انه لو كان قد اختار طريقا غير الادب لفقدت الحياة الادبية في مصر والعالم العربي عمادا ضخما هز أركان الدنيا الادبية في العالم العربي ووضع فيها الاسس الاولى والبدايات اللامعة لادب بأكمله .

حضر طه حسين الى القاهرة بعد ان حفظ القرآن ليتعلم في الازهر ثم انتسب الى كلية الآداب وراعه فيها ما طالعه من آفاق ادبية جديدة فهو هناك يستمع الى دروس احمد زكي باشا في الحضارة الاسلامية ودروس احمد كمال باشا في الحضارة القديمة ودروس جويدي في أدبيات الجغرافيا والتاريخ كما يستمع الى ليتمان ولينو وسانتلانا .

وتهفو نفس الفتى الى ذلك العالم الجديد من المعرفة .

ويكتب طه حسين رسالته « ذكرى ابي العلاء » وينال بها الدكتوراه كما ينال أيضا قرارا بايفاده في بعثة الى فرنسا ليتلقى تعليمه هناك .

ولعلنا في غير حاجة الى الاشارة الى المعنى الذي جعل طه حسين يختار أبا العلا دون شعراء العربية ليكون موضوعا لرسالته .

ومن السوربون ينال الدكتور طه حسين درجة

دكتوراه الدولة في الآداب . وقد حرص الدكتور طه أن يتقن الى جانب الفرنسية اللاتينية واليونانية . وقد ظل الى آخر عهده بالجامعة يدعو تلامذته الى اتقان هاتين اللغتين حتى يتيسر لهم ان يتقنوا دراستهم للادب

عمل الدكتور طه حسين استاذا بكلية الآداب في الجامعة ثم أصبح عميدا للكلية ثم أصبح مراقبا للثقافة بوزارة المعارف ومستشارافنيا للوزارة ثم مديرالجامعة الاسكندرية . حتى اذا كانت سنة ١٩٥٠ أصبح وزيرا للمعارف وحين تولى المنصب فوجئت مصر بالرجل الذي ثار على الاقدار يثور على الفقر فاذا هو يطلق كلمته الساخرة التعليم كالماء والهواء ولا بد أن يتوفر للجميع .

ولعل أهم الوظائف التي تولاها طه حسين هي وظيفة استاذ في الجامعة فهي الصفة التي لم تتركه منذ بداية حياته العملية حتى اليوم . فطه حسين استاذ على يده تخرج الادب العربي الحديث . والاساتذة الذين يدرسون الادب حتى اليوم هم تلاميذ طه حسين أو تلاميذ تلاميذه .

أما طه حسين الاديب فهو العملاق الذي فتح النوافذ الادبية بين الادب العربي والآداب العالمية جميعا اغريقية كانت أو فرنسية أو انكليزية .

كان الادبالمنشور حين بدأ طه حسين حياته الادبية ادبا انشائيا يعتمد على الجرس اللغوي دون عمق ودون اصالة .

وجاء طه حسين ليعلن ادبا عربيا جديدا يبحث عن الجوهر والعمق ثم هو يلقيه في اسلوب اخاذ ساحر لم ينزع نفسه من اصالة اللغة العربية وحلاوتها ولم يلق بنفسه في احضان الاسلوب الاخباري البعيد عن الفنية الادبية وعن حلاوة الجرس وسحر الموسيقى في اللفظ والجملة .

اسلوب فريد في اللغة العربية لم يسبقه اليه احد.
ثم نجد طه حسين يتناول السير التاريخية في قالب بحث جديد من الادب العربي فهو ينظر الى المذهب الديكارتي في البحث بالعمق والتحليل والدراسة ثم هو يعرض عرضه في اسلوبه هذا الرافع الفريد فاذا هو ينشيء مكتبة ادبية تاريخية لا مثيل لها في كتبه على هامش السيرة والشيخان ومرآة الاسلام ومع ابي العلاء في سجنه والشعر الجاهلي وغيرها ـ ويلقي الدكتورط ه حسين نظرة الى الرواية فيجد أن الادب العربي لم يعرف من الرواية الا رواية زينب للدكتور محمد حسين هيكل فاذا هو يكتب فيمعظم ألوان الرواية .

فهو يكتب السيرة الذاتية وصراع الانسان معالقدر في روايته الايام واجزائها الثلاثة وقد ترجمت هذه الرواية في معظم لغات العالم .

واني أحب أن اقف وقفة عندهذا الكتاب فان الدكتور طه يرى انه املى كتابه هذا في فترة كانالهجوم السياسي عليه ضاريا حتى سقطت وزارة بسبب كتاب له هو الشعر الجاهلي وأراد ان يهرب بنفسه من هذا الهجوم فأملى كتابه الايام وقبل ان ينشر عرضه على صديق له فاذا هو يقول له انه كتاب لا يستحق النشر لانه انما يتحدث عن حياة طه حسين فقط ولا يتناول شيئا آخر يهم القارىء وتلح دار الهلال على الدكتور ان تنشر الكتاب فيقبل كارها مشفقا الا يجد الكتاب نجاحا. وينشر الكتاب فاذا هو هذا العمل الخالد الذي اصبح من أهم اعمال تراث أدبنا الحديث .

وكتبطه حسين رواية الاسرة في شجرة البؤس وكتب الرواية التاريخية الرمزية في احلام شهرزاد وكتب قصة الريف والتقاليد في دعاء الكروان وكتب مآساة الضياع بين الشرق والغرب في رواية اوديب .

ولم يكتف طه حسين بذلك بل هو ينقل الى الادب العربي آثارا من الادب الفرنسي ملخصا حينا ومترجما حينا آخر .

ويقصد فطه حسينهو عميد الادب العربي ولا نبالغ اذا قلنا انه هو ابو الادب العربي الحديث علن سن قلمه عرف طريقه وباشراقته فتحت نوافذه على معالم الادب العالمي يتنفس هواءه ويستضيء بنوره غير بعيد عن اصوله العربية واعراقه الاسلامية .



الفنان العربي المعاصر

د. علي الزبيدي

تكلمت في مقال سابق عن الفنون الجميلة ، وعن اهميتها في الحياة القومية والانسانية قديما وحديثا . وأشرت الى تزايد هذه الاهمية في العصر الحديث ، وذكرت ان المعنيين بتاريخ الفن وفلسفته من المعاصرين، كتبوا أبحاثا جليلة أكدت وأوضحت ارتباط الفن بالحياة الاجتماعية ، وكشفت الادوار الخطيرة التي يمكن للفنان أن يقوم بها ، لا في تصوير مجتمعه فقط ، بل في توعيته وتنويره وتطويره ورفع مستوياته الاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية . وذكرت ايضا ان فنان العصور السابقة كان يتعامل مع الحياة الاجتماعية ، الا ان هذا التعامل ، كان طبيعيا تلقائيا ، اعني انه لم يكن نتيجة مواقف فنية مستندة الى فلسفة جمالية اجتماعية ، ذات اسس وحدود ومفاهيم راسخة في مدارك الفنان . وكان الفنان العربي . كغيره من فناني الامم الاخرى ، ينفعل بما يجري في مجتمعه ، وقد يتخذ موقفا معينا ، ناقدا او غير ناقد من الاحداث الاجتماعية وغيرها ، ولكن هذا الانفعال او التعامل لم يكن مبنيا على عقيدة ، او فكر فني فلسفي يتفهم صلات الفن بالحياة الاجتماعية ، ويدرك اثر وتأثير كل منهما بالآخر ، وقلنا ان قدامى نقاد الشعر العرب لم يدركوا بدورهم علاقة الشعر – باعتباره فنا – بالحياة الاجتماعية ، فلم يقدموا دراسات تحلل النتاج الشعري الفني وتكشف عن علاقات مقوماته وقيمه الفنية والجمالية والفكرية بحياة المجتمع العربي .

اما الفنان العربي المعاصر وغير العربي ايضا ، فقد كشفت له الدراسات الفلسفية والفنية الحديثة هذا الجانب الذي كان مجهولا أو شبه مجهول ، فصار يعرف ان دوره في الحياة الاجتماعية لا ينحصر في انعكاس احداث المجتمع في فنه انعكاسا تلقائيا يحدث حينا ولا يحدث في حين آخر ، بل يتجاوز هذا الحد ، الى البحث عن مصادر الوحي الفني في المجتمع بحثا مقصودا مدروسا ، والى استخدام موهبته في انجاز نتاج فني يصور هذا الوحي الفني الصادر من المجتمع ويعبر عنه تعبيرا فنيا قادرا على التأثير في حياة الجماعة التي استوحى منها عناصر الفن الاولية . أريد ان اقول ان الفنان المعاصر لا يتأثر بالحياة تأثرا عشوائيا معتمدا على الصدفة او مقتصرا على بعض الحالات كما كان يحدث من قبل ، بل يبحث الفنان بنفسه عن مواد الفن الاولية في حياة الجماعة التي يعيش فيها ثم يقدمها باشكال ومضامين فنية قادرة على التأثير في حياة الجماعة نفسها .

وسواء اقتصر الفنان على التأثر ليس غير ، او تجاوز ذلك الى التأثير اضافة الى التأثر ، فهو في كلا الحالتين مرتبط بمجتمعه ، مشدود الى مصادر الايحاء الفني فيه ، لانه جزء حي منه ، ولهذا كانت الفنون وما زالت وستبقى أفضل مصور يعكس ملامح وخصائص المجتمع الذي يعيش فيه الفنان ، لان فنه يحمل الطابع الذي يميز فن قومه عن فنون الاقوام الاخرى ، وهذا الطابع القومي المتميز ، هو الواسطة الوحيدة التي تربط الفنان بالمجتمع الانساني كله .. اذ لا يعقل أن يرتبط الفنان بالمجتمع الانساني العالمي رأسا وبقفزة هائلة تتعدى آلاف الكيلو مترات وملايين الناس الذين يعيشون حوله .

فالفنان لا يمكن أن يرتبط بالانسانية العالمية الا عن طريق الجماعة التي يعيش فيها ويستوحي فنه من حياتها ثم يقدمه اليها ، ليكون في جملة تراثها الفني القومي ، فاذا ما توفرت فينتاجه سمات وخصائص فنية وغير فنية أخرى ، أصبح هذا النتاج القومي جزءا من تراث الانسانية كلها ، وأمسى أثرا من آثارها الفنية الخالدة . فقومية الفن هي في الوقت نفسه انسانيته ، وما أن يكون الفن قوميا حتى تنفتح أمامه الابواب ليكون انسانيا . فنتاج الشعراء الخالدين والشعر من الفنون المهمة كما نعلم ، يمثل أدبهم القومي وفنهم القومي قبل أن يصبح جزءا من تراث الانسانية . فهوميروس كان شاعرا اغريقيا ثم أصبح شعره عالميا انسانيا بعد قرون، أي حين ترجم الى اللغات الاخرى فعرفه الناس الآخرون واكتسب ابعادا انسانية . وشكسبير كان انجليزيا قبل أن تطلع الامم الاخرى على فنه وشعره ، فلما ذاع شعره في العالم اكتسب سمة عالمية وانسانية . والمعري شاعر عربي أنتج فنا وأدبا عربيين ، صحيح أن في شعره أبعادا انسانية منذ ظهر الى الوجود . ولكن المعري لم يصبح عالميا انسانيا الا بعد أن تجاوز شعره حدود العالم العربي والاسلامي وانتشر في العالم ويقال مثل هذا عن عمر الخيام وفكتور هوجو وملتن ودانتي وطاغور وجميع الشعراء الخالدين .. وينطبق هذا أيضا على الفنانين الآخرين ، أي على الرسامين والنحاتين والموسيقيين الخالدين ! ففنهم كان يعبر بصورة من الصور عن موضوعات ومقولات فنية مأخوذة من مجتمعهم ، أي أنه استطاع أن يكون قوميا ، فلما كان تسنى له أن يصبح انسانيا وبخاصة حين خرج من حدود بلاده وانتشر ووصل الى القوميات الاخرى .

لقد ضرب الامثلة من حياة الشعر والشعراء ، لان الشعر يصلح أكثر من أي فن آخر للدلالة على الطابع القومي الاصيل للفن .. كل فن ، فالشعر يأخذ من أمته لغتها الشعرية الجميلة ، فيستوعب أهم عناصر قوميتها أي اللغة ، ثم ينفث في هذه اللغة مواهبه وقدراته ويمنحها خصائص فنية تؤلف بمجموعها طابعا فنيا قوميا يمهد لها الطريق الى الطابع الانساني الشامل .
والزعم بوجود فنان يجلس في منزله ثم يهبط عليه الوحي من السماء فينتج فنا يحمل طابع البشر في أبعد زوايا الكرة الارضية ، هذا القول خرافة أثبت بطلانها العلم الحديث . فالفنان ليس نبيا ، والموهبة الفنية وجدت في الفنان على الارض والوحي الفني جاءه من الجماعة التي تعيش معه في هذا المكان أو ذاك من الارض ولن يكسب أي نتاج فني قيمه اذا لم يخرج من مخبئه كي يراه الناس ويسمعوه ويتذوقوه ويمنحوه مزايا الاثر الفني الخالد . وما يقال عن الشعر يقال عن الفنون الاخرى كالتصوير والنحت والموسيقى وفنون العمارة وغيرها وكل لوحة فنية وكل نغم موسيقى ساحر وكل تمثال رائع وكل أثر معماري جميل ، كل هذه تعبر عن نتاجات فنية تمثل أول ما تمثل الطابع الفني القومي لمجتمعهم أي لامتهم ، ونجاحها في استيعاب هذا الطابع القومي وتمثيله وابرازه هو الذي يقود هذه النتاجات الى رحاب الانسانية ويجعلها ضمن تراثها العام .

وتاريخ الفن قديما وحديثا يقدم الدليل الذي

لا يحتمل النقاش في هذا الموضوع ، ففنون الانسان منذ قديم الزمان مرتبطة بشخصيتها القومية المحلية والمادية والمعنوية قبل أن تصبح جزءا من التراث الفني الانساني الشامل ولهذا تحمل الفنون اسم أمتها قبل أي شيء آخر . فهذا فن فرعوني يمثل مصر قبل أن تصبح عربية ،وهذا فن آشوري أو سومري أو بابلي قبل أن تصبح العراق وشعبها جزءا من الامة العربية ، وذلك فن روماني أو فنيقي في سورية القديمة ، وهذا فن اغريقي أو يوناني ، وذلك فن فرنسي أو ألماني أو انجليزي .. الخ .

فالفنان صورة لقومه، وفنه وجه من وجوهها يحمل سماتها ومميزاتها ، ولهذا حمل اسمها ، فلما نجح في تحقيق قوميته نجح في تحقيق انسانيته أيضا .

لقد اضطررت الى هذا الشرح السريع لان كثيرا من الفنانينالعرب المعاصرين يظنون أن الفن يجب أنيكون انسانيا قبل أن يكون قوميا عربيا وهو أمر مستحيل الوقوع كما بينا ، بعد أن أثبت العلم الحديث وفلسفة الفن المعاصرة أنالفنان وفنه مرتبطان بالحياة الاجتماعية ارتباط العضو بالجسم الواحد ، وانهما مشدودان الى بيئتهما الاجتماعية الخاصة والعامة والى عناصرها الفكرية والنفسية والاجتماعية وغيرها ، وان الفنان لا يستطيع أن يطفر طفرة شاسعة . فليست الانسانية فكرة مجردة يستطيع أن يتعلق بها الفنان بطريقة اسطورية . أنا وأنت نعيش في العراق وننتج فنا يعبر عنآمال وآلام مجتمعنا هنا ، لا عن مجتمع طوكيو ولندن وجزائر المحيط الهادي فاذا نجحنا في انجازاتنا الفنية كان الطابع الانساني الذي امتزج وتفاعل وتداخل مع الطابع القومي يمثل الحلقات التي تشد نتاجنا العربي الى الانسان في سائر أرجاء العالم ، فالقومية والانسانية يمكن أن تتحققا في الفن ، كل فن ، ولكن القومية لا بد أن تسبق الانسانية في الظهور ثم تسير معها جنبا الى الى جنب . فالفنان العربي اذن لا بد أن يكون عربيا أولا وقبل كل شيء ، ويجب أن يتذكر أن الدعايات الاستعمارية والافكار المضللة قد تقصد أن تقطع علاقة الفنان المباشرة بقوميته أي بمجتمعه لتجعله يهيم على وجهه بعيدا عن المجتمع الذي أنجبه وأنجب فنه . لان أعداءنا يدركون أن الفن بعد القيمة العظيمة التياكتسبها في العصر الحديث أداة ذات تأثير عظيم في نفوسالجماعات وفي عقولها ، قد تلعب دورا خطيرا في بناء حاضرها ومستقبلها ، وهل هناك خطر على أعداء الامة العربية أشد من اتجاه كل الفنانين العرب الى مجتمعهم العربي، يستوحون منه العناصر الاولية لفنونهم ويستعينون بمواهبهم في انتاج هذا المركب الجميل الذي نسميه الفن ليقدموه الى أبناء أمتهم العربية من الخليج الى المحيط فيحققوا النجاح الفني والتأثير في جماهير العرب وفي حياتهم الاجتماعية والفكرية . أليس في هذا التضافر خطر كبير على مصالح كل الذين يريدون أن يفرقوا ويجعلوا من تجزئة الامة العربية حقائق اجتماعية وسياسية مزيفة .

صحيح أن الفن كل الفن في العالم العربي القديم كان يحمل خصائص قومية متعددة ، كالفن الفرعوني والفن البابلي والآشوري .. وغيرها من فنون الاقوام البائدة التي عاشت في هذه المنطقة من العالم . فلما ظهر العرب وانتشرت لغتهم وتوحدت ثقافتهم وحضارتهم واكتسب سكان هذه المنطقة من المحيط الى الخليج شخصية قومية عربية واحدة واكتسب مجتمعها خصائص جوزت لنا أن نعتبره مجتمعا عربيا موحدا من حيث اللغة والحضارة والادب والفكر وغيرها . لا بد للفنان العربي المعاصر بعد هذا أن يدرك أن ارتباط فنه بالجماعة العربية لا يعني تعبيره عن حياة هذه الجماعة بل يجب أن يحقق ما يحققه كل فنان معاصر مثقف واع يدرك للفن وظيفة اجتماعية . وان وظيفة الفنان العربي الاجتماعية لا تقتصر اذن على التعبير بل تتجاوز ذلك الى تبني هذه الوظيفة الاجتماعية تبنيا قائما على الالتزام المستند على الحقائق وعلى الاقتناع بضرورة هذا الالتزام العربي الشامل بالوظيفة الاجتماعية للفن ، الفن العربي . وبذلك يستطيع الفن العربي أن يحقق وأن يرسخ طابعه القومي الحضاري المتجدد ، وأن يحقق في الوقت نفسه لا قوميته فقط بل انسانيته أيضا .

من عيون التراث العربي

الحيوان للجاحظ

د. أنس داوود

كان الجاحظ واحـدا من الموسوعيين الكبار الذين عرفتهم الحياة العربية في ابان ازدهار حضارتها ، وتدفق عطائها فقد ولـد على وجه التقريب في منتصف القرن الثاني الهجري ومات قبيل منتصف القـرن الثـالث الهجري وفي غضون هذا القرن الذي عاشه كانت الثقافة العربية قد بلغت اوج نضوجها ، واستطاعت ان تستمد من الحضارات المجاورة والسابقة وبخاصـة حضارتي الفرس واليونان كثيرا من ثمار القرائح ، ومن جني العلم المختلفة فشاعت الترجمة عن ارسطور المعلم الاول بما في ذلك كتابه المعروف عن « الحيوان » كما اتسعت الصلات بين الشعبين العربي والفارسي وتناقل العـرب كثيرا من معارف الفرس عن الحيوان ، ودخلت بعض الانواع الحيوانية كالديك والكلب مثلا سبيل المنافسة في الصراع العصبي الذي كان دائرا آنذاك بين العـرب والنزعة الفارسية الشعوبية التي كانت تبحث عن سبل نهضتها ، ومقاومة العربية الغالبة .

وكانت الدراسات الاسلامية ، والفرق المختلفة قد اشتد عودها واصبحت مدارس فكرية ، استأثر المعتزلة بالنصيب الاوفى فيها من بصر بشؤون الجـدل ، والمام بأنواع المعرفة ، واصطناع لكل وسائل التأييد لآرائهـا وكان الجاحظ وسط هذه البيئة التي تمور بمختلف المعارف العقلية والنقلية .. علما من اعلام الادب ، وعلما من اعلام الاعتزال ، وعلما من اعلام الموسوعيين الذيـن الذين يقبلون على كل العلوم بنهم ومشاركة أصيلة فقد استوعبت هذه الشخصية الغربية كل تراث العربية ، وكل مـا أفاء الله على العربية من معارف يونان وفارس ، فكانت له في آداب الاعراب وايامهم وعاداتهم وصلاتهـم بالكون وبالحياة رواية عميقة موثوقة ، وكانت له درايـة الباحث في العلوم المنقولة والآداب المترجمة ، وكانت له خبرة فذة بالحياة والاحياء جعلت منه وهو الاخباري الحجة صاحب تجربة خاصة ، وبصر اصيل بشؤون الحياة ، وطبائع البشر ، يعرض تجربته في كتبه لتكون مصدرا من اهم مصادره في معرفة الناس والاشياء .

وبذلك المزيج المتفرد من الصلة بالتراث العربـي والتراث الانساني والقـدرة على الاختيـار والموازنة والتدقيق ، بمؤازرة خبرة شخصية بعيدة الغور ، ومـن ثنايا عقلية جدلية تحمل هموم الاعتزال ، والمنافحة عن قضاياه ، بالحجة العقلية وتناول النصوص الدينية تناولا

مستنيرا ، بذلك المزيج الغريب المعقد اقدم الجاحظ على كتابة مؤلفه الضخم ـ الحيوان ـ ليكون موسوعة كبرى في ميادين مختلفة من المعرفة .

ففي الحيوان روايات عن كتاب ارسطو ، وفيه اخبار عن كثير من معتقدات الامم المجاورة وعاداتها ونظرتها الى صنوف (الحيوان) .. وفيه ـ وربما يتفرد بذلك بين الكتب العربية ـ موسوعة كبرى من معارف العرب عن الحيوان تدهش كل من يطلع عليه أن يكون لهؤلاء الاقوام في بوادي شبه الجزيرة كل هذه المعارف الدقيقة عن الحيوان ، بل أن تكون هذه المعارف بما يؤازرها من شعر يروى ، ومثل يضرب ، وحكايات تقال، ان تكون هي المرجع الاول للجاحظ في معرفته للحيوان، وان تكون الفيصل بين الحق والباطل فيما يرى ، فلها عنده الاسبقية ، ولديها المحك في صدق ما يروى عن الفرس ، أو ما يترجم عن المعلم الاول ، لان هذه المعرفة العربية فيما يرى الجاحظ لا تصدر الا عن صدق الاختبار ، وعمق الملاحظة ، ونضارة الاحساس بالحياة في البيئة البدوية .. وبذلك لم يكن كتاب الحيوان موسوعة علمية منظمة عن طبائع وفصائل الحيوان تحكمها الملاحظة الجافة ، واللغة العلمية المحايدة ، بل هو ساحة للصراع الذي كان دائرا في البيئة العربية بين العصبيات المختلفة ، والنحل المتناحرة ، وكان موسوعة للعقل العربي وثقافاته الدائرة حول الحيوان ، كما يحمل أيضا خصائص العقل العربي آنذاك .. ففي تبويب الكتاب، وتنسيق فصوله ، ومنطلقات توليفه ، وما تناثر بين يديه من طرائف الاقوام ، وروايات السابقين ، ونوادر البله والحمقى والممرورين ، وبدوات العلماء والشعراء والسادة والقادة واصحاب المهن المختلفة ، وغير هؤلاء ممن كان يستطيع الجاحظ ان يخالطهم ويغشى مجالسهم ويطلع على طرائفهم ويروي عنهم ما يضحك وما يبكي .. في هذا النسق من التأليف طابع العرب آنذاك في المعارف المختلطة حينا والمتكاملة حينا آخر .

وقد بنى الكتاب على عنصر « المناظرة » المناظرة بين الديك والكلب ، وبين البعير والفيل ، وبين الخنزير والقرد والكلب ، المناظرة لتفضيل طائر على طائر أو حيوان على حيوان .. والمناظرة تعني « الحكم » على ظاهرة ، وتفضيل شيء على شيء ، والحكم والتفضيل من أخص صفات العقل العربي الاول ، الذي لم يستطع أن يقف موقف الحياد أمام « الظواهر » ليحللها ويستخلص صفاتها وخصائصها ، بل مزج نفسه بالاشياء وتشيع لهذا أو ذاك ، ويعد بذلك في كثير من شؤون حياته، في حضارته السابقة ـ وربما في حياته الحاضرة ـ بعد عن جادة الصواب ، بما في ذلك من خلط بين عناصر الشخصي والموضوعي ، وبعد عن ادراك خصائص الظواهر الكونية والحياتية بعقل هادىء ووجدان مستنير ..

وربما يقال ان هذا التناظر بين الحيوانات أو بين انصارها المختلفين كان ظاهرة من ظواهر البيئة التي عاش فيها الجاحظ والصراع بين العصبيتين الفارسية والعربية ، فقد كان لكل قوم طائفة من الحيوانات تتصل بحياتهم وعاداتهم وربما بعض عقائدهم ففي منافحة كل فريق عن « الحيوان » الخاص به ، منافحة عن قومه وعن تراثه وعن جنسه وحضارته ، متخذا من ذلك الحيوان رمزا للدفاع عن ارومته .. كالديك مثلا الذي دافع عنه الشعوبيون ، والكلب مثلا الذي توفر على استخراج فضائله ورثة الحضارة العربية .

ولعل هذا القول يكون صحيحا الى حد كبير ،ولكن الدلالة على اتخاذ هذه الوسيلة في كتاب عن «الحيوان» ورصد طباعه وخصائصه وانواعه عن هذا الطريق ، هي دلالة ذات اتصال وثيق بطابع الظواهر والافكار المسبقة أو بين الذاتي والموضوعي على نحو لا ييسر لها في كثير من الاحيان الوصول الى «الحقيقة» في جوهرها ونقائها .. يتصل بذلك ايضا أن الجاحظ قد عمد في جزء كبير من كتابه الى عرض معارفه عن الحيوان من خلال شرحه لثلاث قصائد شعرية احداها للحكم بن عمرو البهراني، والاخيرتان للنظام احد أئمة المعتزلة ، وان الجاحظ قد روى كثيرا من طرديات ابي نواس في بداية الجزء الثاني ، كما قد روى كثيرا من الاشعار والطرائف في ثنايا حديثه عن حشرة أو طائر أو حيوان لا تضيف كثيرا من المعرفة العلمية تتصل بموضوعه الذي يتحدث فيه ، هذا اذا غضضنا الطرف عن الاسلوب الاستطرادي الموشح بالنكت والدعابات ورواية ما يخطر على البال لادنى مناسبة ، وكل هذا يدعم الطابع الوجداني للكتاب من ناحية وللعقلية العربية من ناحية اخرى ذلك الطابع

الذي يمثل قمة اساسية في جوهر تكوينها .

مع كل ذلك يظل كتاب «الحيوان» للجاحظ مصدرا لا للمعرفة التي وصلت للبيئة العربية آنذاك عن انواع الحيوانات وفصائلها وبيئاتها وطبائعها فحسب . بل هو مصدر لكثير من المعارف في شؤون شتى ، بعضها يتصل بالتاريخ العربي ، وبعضها يتصل بالصراع بين العرب والشعوبيين ، وبعضها يتصل بالجدل بين المعتزلة انصار النزعة العقلية ، وبين اتباع السنة والوقوف عند حدود النقل ، وبعضها يتصل بالمحاجة بين المعتزلة وطوائف الراوندية والمنكرين والدهريين .. وكل هذا يتصل بخيط من خيوط الحديث عن طائر أو عن حيوان ، فالتراث العربي الذي وصل الى بيئةا لجاحظ من شعر ونثر وقصص واساطير شبه الجزيرة العربية منذ عصورها الاولى جم غفير ، وقد توفر الجاحظ على روايته في كتابه هذا ، بل جعله «العمدة» في معرفته عن الحيوان ، وكذلك أثار القرآن الكريم اهتمام اتباعه بعالم الحيوان ، وكما قال الجاحظ « ذكر الله عز وجل في القرآن العنكبوت والذر والنمل والكلب والحمار والنحل والهدهد والغراب والذئب والفيل والخيل والبغال والحمير والبعوض والمعز والضأن والبقر والنعجة والحوت والنون » وخلف كل ذلك قصص هامة ، وعبر مذكورة ، وقد اهتم الجاحظ اهتماما واسعا بجلاء كل هذه الانواع من الطير والحيوان وافاض في الحديث عنها كما تحدث عن الملابسات والعبر التي اوردت ذكرها في كتاب الله الكريم .. وكان في كل ما يتحدث به عن طائر أو حشرة أو حيوان لا ينسى أنه الداعية المعتزلي ، فيلفت الانظار الى بديع صنع الله ، وعظيم قدرته ، وباهر خلقه حتى في الهين اليسير الذي تعبر به العيون ولا تتوقف عنده كثير من الافئدة على نحو ما قال في غضون حديثه عن الكلب والديك : « فليس لقدر الكلب والديك في انفسهما وأثمانهما ومناظرهما ومحلهما من صدور العامة اسلفنا هذا الكلام وابتدأنا بهذا القول ، ولسنا نقف عند أثمانهما من الفضة والذهب ، ولا الى أقدارهما عند الناس ، وانما ننظر فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى اتقان صنعه ، وعلى عجيب تدبيره ، وعلى لطيف حكمته ، وفيما استخزنها من عجائب المعارف ، وأودعها من غوامض الاحساس ، وسخر لهما من عظام المنافع والمرافق ، ودل بهما على ان الذي البسهما ذلك التدبير ، وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكر فيهما ، ويعتبر بهما ، ويسبح الله عز وجل عندها. والجاحظ المعتزلي الداعية لا يني عن التذكير بالله في غضون كتابه ، ولا على التنبيه الى دقة صنعه وعظيم تدبيره على نحو ما ذكره في حديثه عن « النمل » فقال :

قد علمنا ان ليس عند الذرة غناء الفرس في الحرب والدفع عن الحريم ولكنا اذا أردنا موضع العجب والتعجب ، والتنبيه على التدبير ذكرنا الخسيس القليل، والسخيف المهين ، فأريناك ما عنده من الحس اللطيف، والتقدير الغريب ومن النظر في العواقب ومشاكلة الانسان ومزاحمته ، والانسان هو الذي سخر له هذا الفلك بما يشتمل عليه ، وقد علمنا ان الذرة تدخر للشتاء في الصيف وتتقدم في حال المهلة ، ولا تضيع اوقات امكان الحزم ، ثم يبلغ تفقدها ، وحسن خبرها والنظر في عواقب امرها ، انما تخاف على الحبوب التي ادخرتها للشتاء في الصيف ان تعفن وتسوس ، ويقبلها بطن الارض . فتخرجها الى ظهرها ليبيسها ويعيد اليها جفوفها ، وليضربها النسيم ، وينفي عنها اللخن والفساد ، بل ربما يكون أكثر مكانها نديا وخاف أن ينبت بقرب موقع القطمير من وسط الحبة ، وتعلم انها من ذلك الموضع تبتدىء وتنبت وتنقلب ، فهي تفلق الحب كله انصافا ، فأما اذا كان الحب من حب الكزبرة فلقته ارباعا لان انصاف حب الكزبرة ينبت من بين جميع الحبوب فهي على هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوان» ويضيف كذلك من ملاحظاته لهذه الحشرة الضئيلة الغريبة : « وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعفه مرارا غيرها وعلى انها لا ترضى باضعاف الاضعاف الابعد انقطاع الانفاس » ويروي في هذا الباب عن ارسطو قوله : « ان الضباع تأكل النمل أكلا ذريعا وذلك ان الضباع تأتي قرية النمل في وقت اجتماع النمل فتلحس ذلك النمل بلسانها بشهوة شديدة وارادة قوية » وهذا شأنه مع ارسطو اذا روى له موافقا ، اما اذا روى له متحفظا أو مصححا لآرائه ، فانه يقول مثلا اذا تحفظ في قبول آرائه والتمس له المعاذير : « ولعل المترجم قد أساء في الاخبار عنه » اما اذا كان لديه حجة من الشعر العربي القديم تناقض ما جاء في كتاب ارسطو فلا يلبث ان يقول : « هذا قول صاحب المنطق في عقوق العقاب ، وجفائها باولادها فأما اشعار العرب فهي تدل على خلاف ذلك قال

دريد ابن الصمة :

وكل لجوج في العناق كأنهـــا
اذا اغتمست في الماء فتخاء كاسر
لهــا ناهــد في الوكر قد مهدت له
كمــا مهدت للبعل حسناء عاقر

وقد يحتد في التعقيب على ارسطو على نحوماقال : « وقد ذكر صاحب المنطق انه قد ابصر ثورا وثب بعد ان خصى ، فنزا على بقرة فأحبلها ، ولم نجد هذا مـــن معاينة ، والصدور تضيق بالرد على اصحاب النظــر ، وتضيق بتصديق هذا الشكل » او على نحو ما قال في موضع آخر : « وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق مــن قبل ، وما يليق بمثله ان يخلد على نفسه في الكتـــب شهادات لا يحققها الامتحان ولا يعرف صدقها اشباهه من العلماء » .

وكما كانت الرواية عن التراث العربي اصلا مــن اصول المعرفة التي عرضها علينا الجاحظ في كتابــه ، وحكم بها على ما نقل اليه من احاديث الامم المجاورة .. كانت الملاحظة الشخصية رافدا ايضا من روافد هذه المعرفة .. وبعض هذه الملاحظات يتضمــن الطريف في الطبيعة ، وفي عجائب المخلوقات ، ومن اطرفماحدث به الجاحظ عن عجائب الطيور قوله : « وأي شيء اعجب من طائرين ، يراهما الناس من ادنى حدود البحر من شق البصرة ،الى غاية البحر من شق السند ، احدهما كبير الجثة يرتفع في الهواء مصعدا ، والآخر صغير الجثة يتقلب عليه ويعبث به ، فلا يزال مرة يرفرف حـــوله ويرتقي على رأسه ، ومرة يطير عند ذناباه ، ويدخـــل تحت جناحه ويخرج من بين رجليه ، فلا يزال يغمــه ويكربه حتى يتقيه بذرق ، فاذا ذرق حشا فاه فلايخطىء أقصى حلقـــه حتى كأنه دحا بــه في بئر ، وحتى كـأن ذرقه مدحاة بيد اسوار ، فلا الطائر الصغير يخطىء في التلقي ، وفي معرفته انه لا رزق له الا الذي في ذلك المكان، ولا الكبير يخطىء التسديد ، ويعلم انه لا ينجيه منه الا ان يتقيه بذرقه ، فاذا أوعى ذلك الذرق ، واستوفى ذلك الرزق ، رجع شبعان ريان بقوت يومه ، ومضى الطائر الكبير لطيته ، وامرهما مشهور وشأنهما ظاهر ، لا يمكن دفعه ولا تهمة المخبرين عنه » .

وبالاضافة الى المعارف الاساسية عن «الحيوان» التي عرضها الكتاب فانه بصورته الراهنة يعتبرموسوعة عربية تشتمل على كثير من عادات العـرب وطرائـــق تفكيرهم بل والكثير من اوهامهم وعقائدهم واساطيرهم وعلاقات عالم الانس ـ فيما يظنون ـ بعالم الملائكـة وعوالم الجن والغيلان والشياطين ، وهواجسهم فـي الطيرة والتشاؤم واوهامهم عـن العـين والحسـد ، وتحول الحيوان الى حيوان آخر ، وتحول الانسان الى حيوان ثم عودته الى صورته الانسية الى غير ذلك مما تذخر به موروثات الشعوب القديمة .. ولئن عـرض الجاحظ للحسد مثلا في صورة من يؤيد وجوده او على الاقل لا ينفي رواياته ، بل يساندها بالاخبار الكثيرة ، والمصادر العديدة ، فانه عندما عرض لتحول الحيوان الى حيوان آخر اوضح انه قال بذلك في مجال الهزل ، وانه لا صحة لاخبار تروى عن ذلك بينما نجدهفيموضوع شغل بالالفكر العربي في تراثه الشعبي وهو موضوع تحول الانسان الى حيوان وهو الموضوع المتكرر في ألف ليلة وليلة والمتسلل ـ بلا ريب ـ الى الفولكلور العربي من عقائد الهنود الذين اختلط العرب بهم ، واجتاحوا بدعوتهم الجديدة تخوم عالمهم .. هذا الموضوع الغريب بلا ريب على الفكر الاسلامي والعقيدة الاسلاميـــة الصافية نجد الجاحظ يعرض له في غـير معارضـــة واضحة ، بل يمسه مسا رقيقا فيقول : « وقـد خبرنا من لا يحصى من الناس انهم قد ادركوا رجالا من نبط بيسان ولهم اذناب الا تكن كأذناب التماسيـح والاسـد والبقر والخيل فهي كأذناب السلاحف والجرذان ، فقد كان لهمعجوب طوال كالاذناب ، وربما رأينـــا المـلاح النبطي في بعض الجعفريات على وجهه شبه القـرد ، وربما رأينا الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبـين المسخ الا القليل ، وقد يجوز ان يصادف ذلك الهواء الفاسد والتربة الردية ناسا في صفة هؤلاء المشوهين والانباط ويكونون جهالا فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم واوطانهم ولا ينتقلون . فاذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور وتلك الاذناب وفي تلك الالوان الشقر وفي تلك الصـور

المناسبة للقرود . قالوا ولم نعرف ولم يثبت عندنابالخبر الذي لا يعارض ان الموضع الذي قلب صور قوم الى صور الخنازير هو الموضع الذي نقل صور قوم الى صور القرود . وقد يجوز ان تكون هذه الصور قد انقلبت في مهب الريح الشمالي والاخرى في مهب الريح الجنوبي ، ويجوز أن يكون ذلك كان في دهر واحد ، ويجوز أن يكون بينهما دهر ودهور ، قالوا فلسنا ننكر المسخ ان كان على هذا الترتيب » فالجاحظ هنا يؤيد انقلاب الصور ويعلل لذلك بفعل التربة والهواء الفاسد وان كان يعرض هذا الرأي في ظل وهن من الرواية ، مكتفيا بكلمة « قالوا » فيشيع بذلك حول الموضوع كله جوا من الغرابة ، وظلا من عدم الوضوح .. ولكن الجاحظ آخر الامر ، وفي موضع آخر من كتابهقد حكم بفساد ذلك كله حين قال : « ولم أر أهل الكتاب يقرون بأن الله تعالى مسخ انسانا قط خنزيرا ولا قردا . الا انهم قد أجمعوا ان الله تبارك وتعالى قد مسخ امرأة لوط حجرا ، حين التفتت ، وتزعم الاعراب ان الله عز ذكره قد مسخ كل صاحب مكس وجابي خراج واتاوة اذا كان ظالما ، وانه مسخ ماكسين احدهما ذئبا والآخر ضبعا » .

وبعد

فقد سبق الجاحظ بالتأليف في « الحيوان » ، فقد الف غير واحد من العلماء من الذين سبقوا الجاحظ أو عاصروه كتبا عن الابل والخيل والغنم والشاء وبعض انواع من الطيور والحشرات .. غير ان هذه الكتب قد كانت معاجم لغوية تحرص على تقديم المادة اللغوية المروية عن هذا الحيوان او ذاك دون أن تعرض فكرا علميا عن الحيوان او تكشف عن تحليل خاص .. وكان كتاب « الحيوان » غير ذلك جميعا .. اولا : لشمولهكافة الحيوانات بأنواعها المختلفة التي عرفت في البيئة العربية آنذاك ، وثانيا : لقدرته على عرض المعرفة الخاصة بكل نوع من الانواع التي عرض لها مستقيا من التراث العربي والتراث الانساني والتجربة الخاصة جميعا ، وثالثا : انه عرض كثيرا من جوانب الفكر العربي والنفسية العربية في خضم عرضهللمعارف العلمية الخاصة بالحيوان ، بل انه بذلك خاطب العقل العربي باللغة التي كان يفهمها آنذاك ، فهو يتناول الكتب كما يتناول الموائد ، وتطيب الموائد بين يديه بتنوع الصنوف وتعدد الاطباق ، وقد مهر الجاحظ في ذلك مهارة فريدة جعلت للكتاب جاذبية خاصة ، ما زلنا نستشعرها حتى اليوم ، برغم ما وصلنا اليه في التأليف الادبي والعلمي من مناهج تتسم بالعمق والصفاء ..

وسبق الجاحظ ايضا بكتاب ارسطو واطلع عليه ، ولكنه اتخذ في كتابه نهجا عربيا خالصا يجعل من كتاب الجاحظ اضافة عربية صافية للفكر الانساني ..

ولقد فتن الكثيرون بكتاب الجاحظ هذا .. فوجد فيه الادباء والمفكرون واصحاب الملل والنحل كثيرا من النصوص المروية ، والدجل الباقي ، وآراء المعتزلة في كثير من القضايا ، وطائفة هامة من آرائهم في صناعة البيان ، وتوجيه الادباء ، وغير قليل من تعرض الجاحظ للآيات القرآنية التي هاجمها الملاحدة او ناوأها غير المعتزلة، فوجهها الجاحظ بذوقه ودرايته وبصره العميق بأسرار البيان العربي .

وبعد ، فان الحديث عن كتاب ضخم في سبعة اجزاء ككتاب الحيوان للجاحظ قد اشتمل على مجموعة من المعارف وعشرات الصفحات من الاخبار المروية والحكايات المصورة ، وقد اشتمل على الجليل والصغير من شؤون الفكر وشؤون الحياة .. انالحديثعنكتاب موسوعي كهذا يحتاج الى دراسات طويلة عميقة لا يستطيع متخصص واحد ان يقوم بها ، فثمة دراسات أدبية وفقهية وكلامية وتراث اسطوري ومعرفة علمية وتصوير اجتماعي وتحليل سيكلوجي .. ولكن المتخصصين في هذه العلوم وجد امثال هذا الكتاب ، وما هذا الحديث سوى ومضة ضوء على هذا الاثر الخالد .

د. انس داود

ألف ليلة وليلة في الأدب الأوربي

عبد الجبار السامرائي

مثلما شاعت وانتشرت حكايات ألف ليلة وليلة في الشرق ، فقد شاعت هذه الحكايات وانتشرت في البيئات الادبية في أوروبا وتركت بصماتها هناك .

لقد انتقلت حكايات ألف ليلة وليلة الى أوروبا عن طريقين رئيسيين هما :

١ ـ عن طريق التناقل الشفاهي .

٢ ـ عن طريق التناقل الكتابي ، بعد الترجمة .

فالانتقال الشفاهي كان نتيجة لحركة التبادل التجاري بواسطة البحر الابيض المتوسط ، بين شواطئه الشمالية في اوروبا ، وشواطئه الجنوبية في العالم العربي والاسلامي . كما كان للحروب الصليبية أثرها أيضا اذ كان الاسرى بين الاطراف المتنازعة ينقلون حكايات الليالي شفاها . ومن الطبيعي أن ينعكس هذا التأثير على الادب الاوروبي ، ولا سيما في مجالات الشعر والقصة والمسرح .

ففي الشعر ، تبين الاغاني الشعبية البيزنطية التي انتشرت خلال القرن التاسع والعاشر الميلاديين بعض ملامح حكايات الليالي ، ولا تزال أناشيد ملحمة ديجنيس اكريتاس التي تعود الى القرن العاشر الميلادي منتشرة حتى اليوم عند الشعب اليوناني ، وقد حاول بعض علماء البيزنطيات المقارنة بينها وبين حكايات الليالي . كما نجد أن (ريتشارد واجنر) قد استقى موضوع اوبراته الاربع من ملحمة النيبونجنليد التي ظهرت في جنوبي ألمانيا خلال القرن الثاني عشر الميلادي،

ويلاحظ أن بعض خوارقها ومواقفها وشخصياتها شبيهة تماما بخوارق ومواقف وشخصيات بعض حكايات ألف ليلة وليلة .

ومن الاشعار القصصية انشودة ملحمية بطلها متز أنشئت في نهاية القرن الثاني عشر ، وجد أن ثم تشابه بينها وبين حكاية نور الدين في ألف ليلة وليلة .

هذا في مجال الشعر ، أما في مجال القصة ، فتبين قصة «الدوق ارنست» التي أنشئت في القرن الحادي عشر بأن مصدرها ألف ليلة وليلة ، وان كل ما جرى من مغامرات للدوق وهو في رحلة في الخارج مستمدة من حكاية « أمير خوارزم »، وان بين هذه القصة وبين رحلات السندباد علاقة وثيقة .

ومن القصص التي تفصل حياة الفروسية وأكثرها تسربا الى أوروبا (سيرة الفارس سيفار)التي ظهرت خلال الاعوام ١٢٩٩ و ١٣٣٥ للميلاد ، هذه القصة وثيقة الصلة بقصة عمر النعمان في ألف ليلة وليلة .

ومن المرجح أن « بوكاشيو » قد استمد قصص

المعروفة بالديكاميرون من ألف ليلة وليلة ، وتعرف هذه المجموعة ـ بألف ليلة وليلة الايطالية ـ والشبه بين الليالي والديكاميرون يقوم على الاطار أي على اعتماد شخصية الراوي للانتقال من حكاية الى أخرى .

وفي ايطاليا أيضا ، نجد مجموعة قصصية أخرى بعنوان «الليالي الممتعة» وهي من تصنيف (استربرولا) وفيها مشابه عديدة مع قصص الليالي العربية ، كذلك ألف (بازيل) مجموعة بعنوان « الايام الخمسة » روى فيها قصصا كانت تتناقل شفاها في أقاليم ايطاليا فيها مشابه من ألف ليلة وليلة .

أما عن أثر الليالي في القصة خلال القرن الخامس عشر ، فنجد له صدى في القصة الانكليزية ، بعد تأثرها بالديكاميرون الايطالية ، ومن تلك القصص (حكاية الفارس الغلام) وقصص كانتربري لتشوسر . ويذكر أن تشوسر عمل جنديا ورحالة وسفيرا لبلاده في البلاد الاجنبية وتأثر برجال النهضة في ايطاليا .

وفي مجال المسرح ، تجلى التأثر الشفاهي لالف ليلة وليلة في المسرح الاسباني الكلاسيكي عند « كالدرون دي لابركا » وفي المسرح الانكليزي عند وليم شكسبير .

ففي المسرح الاسباني عرفت هناك مسرحيتان بعنوان « انما الحياة حلم » التي لها علاقة بحكاية « صحوة النائم » في ألف ليلة وليلة ، وهناك صلة أيضا بين موضوع هذه الحكاية نفسها وبين مسرحية « ترويض الشرسة » لوليم شكسبير ، ولابد أن شكسبير قد أخذها عن مسرحية « انما الحياة حلم » الاسبانية . وهناك مجال واسع لمن يريد أن يعقد مقارنة مستفيضة بين روايات شكسبير وأبطالها التي توحي بأنها مستمدة من الليالي العربية ، كيف لا وان جوانب الحضارة العربية كانت جزءا من ثقافة شكسبير ، وهي تتجلى في كثير من مسرحياته .

تلك هي أبرز الملامح التي غذت الادب الاوروبي من ينبوع حكايات الليالي العربية عن طريق المرحلة الشفاهية ولكن أثر ألف ليلة وليلة في الادب الاوروبي لم ينحصر عند هذا الحد ، فقد أغنت الحكايات هذا الادب أيضا بعد ترجمتها الى اللغات الاوروبية، وتحديدا بعد ترجمتها الى اللغة الفرنسية من قبل (انطوان جالان) .

وأثارت الليالي العربية بعد ان نقلت الى لغات أوروبا شغفا بالغا في نفوس الاوروبيين ، حيث بدأوا يتطلعون الى معرفة هذه الشعوب التي أنتجت هذا الاثر .

ولا نبالغ اذا قلنا بأن ألف ليلة وليلة كانت القوة الدافعة لحركة الاستشراق وانتشارها ، فقد تاق الادباء قبل ظهور هذا الاثر قليلا ومن بعده كثيرا الى زيارة هذه البلاد الشرقية ثم دونوا رحلاتهم كتبا انتشرت ، فاذا المستشرقون بعد أن كانوا يكتفون بما يصل الى أيديهم من كتب عربية أو كتب غربية عن الرحلات وبعض المسائل العلمية الشرقية ، يحاولون هم أنفسهم أن يزوروا هذه البلاد العربية خاصة ، والشرقية عامة ، ويتعرفوا على لغاتها وعاداتها .

أما الاثر الاقوى لكتاب الليالي فقد تمثل في الادب الخالص ، حيث كان اهتمام الغرب أول الامر اهتماما تجاريا ، ولما اقترب الشرق من الغرب بفضل السياسة وأحس الغرب هذا السلطان الشرقي استطيم اتصل قوم أرقى من التجار بمدنية الشرق ومعيشته اتصالا مباشرا ، وأثر كل هذا في الادب الاوروبي عامة وفي الادب الفرنسي على الاخص ، نظرا لمركز فرنسا اذ ذاك ، وكانت ترجمة جالان لالف ليلة وليلة ، أثرا من اثار هذا الاتصال الفرنسي ، التي وجهت الانظار الى الشرق ، وظلت هذه الترجمة طوال هذا القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تمثل للاوروبيين المعنى المفهوم من ألف ليلة وليلة . وقامت شعوب أوروبا بأجمعها لتترجم هذا الاثر . فلنتصور الى أي حد تغلغلت ألف ليلة وليلة في الادب الاوروبي ؟

ففي مجال الشعر ، نجد أثر الليالي بارزا في «قصائد الامثال» الفرنسية عند فلورين في القرن الثامن عشر ، وعند الشاعر القصصي الالماني كرستوف ماري فيلند وعند «هيجو» وخاصة في (شرقياته) وفي الديوان الشرقي للمؤلف الغربي لغوته وكوبلاي خان لكولريدج و «شامسو» الشاعر القصصي ، الذي أخذ قصة عبد الله والدرويش من ألف ليلة وليلة فصاغها شعرا .

ويندر أن تجد شاعرا أو أديبا انكليزيا خلال المائة والخمسين سنة الاخيرة لم يغترف من ينبوع ألف ليلة وليلة ، كما أن الشاعر الايطالي لودفيك اريوستوم ، قد نظم أشعاره القصصية وكأنه نقلها نصا وروحا عن ألف ليلة وليلة ، ما عدا تغيير طفيف .

وفي مجال القصة ، تركت ألف ليلة وليلة بصماتها أيضا ، ونجد أبرز هذه البصمات في المجاميع القصصية التي نسجت على منوال حكايات ألف ليلة وليلة كحكايات الجني للسير شارل مورل وعقد اللؤلؤ الاسيوي لهارتمان وحب أنس الوجود للرحالة كلودايتين سفاري وملحقات ألف ليلة وليلة لبرتن وتكملة ألف ليلة وليلة لجازوت وقصص شرقية لكايلوس .. ثم القصص الشعبي الالماني الذي انتشر انتشارا واسعا والموسوم ب (حكايات الاطفال والبيت) ، للاخوين يعقوب وفلهلم جرم وقد اعترف المؤلفان بأنهما استمدا من ألف ليلة وليلة بعض حكاياتها .

وجاء القرن التاسع عشر بعوامل جديدة ، فالمذاهب الفنية الجديدة التي ظهرت فيه وخاصة الرومانتيكية والرمزية والبرناسية قد افسحت المجال لظهور نوع من القصص الذي يكيف الحكاية الشعبية الشرقية بصورة مباشرة اعجابا بها حينا ، وحينا سخرية من الادب الذي افرط في استخدامها . وهكذا ظهرت قصة (الكباش) وقصة « زهور الشوك » لهملتون .

أما في القصة الاوروبية الحديثة ، فنجد أثرا مباشرا لليالي فيها خلال النصف الاول من هذا القرن وخاصة في فرنسا ورومانيا . ففي فرنسا كانت القصتان اللتان كتبهما هنري دي رينيه عن ترمل شهرزاد وضمنها مجموعته « رحلة الحب » هما أقرب القصص الفرنسي الشرقي الحديث الى ألف ليلة وليلة .

وأبرز مايلاحظ عند رينيه هو ذلك التكثيف الزماني والمكاني في الاحداث حيث يمتزج عصر الاسطورة بالعصر الحاضر ومواطن ألف ليلة وليلة بمواطن لا عهد له بها .

وفي رومانيا ، نجد قصة ل «هيلين فكاريو» مصاغة بسياق قصصي حديث ، جاءت الاحداث فيه متناسقة التسلسل ، وكانت الشخصيات مدروسة بعناية فاذا هي تتحرك بحيوية .

أما في مجال المسرح ، نتكاد صلته بألف ليلة وليلة تكون معدومة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ما خلا مسرحية للسينج ومسرحية لفيرن ولكننا نجد في المسرح المعاصر مثلا بارزا لاثر ألف ليلة وليلة في مسرحية شهرزاد لجول سوبرفيال الفرنسي . كما نجد الاثر الآخر في مسرحية (حذاء أبي القاسم الطنبوري) للمسرحي السويدي (اوغست ستراندنبرغ) .

لقد كان أثر ألف ليلة وليلة في الادب الاوروبي متشعبا متفرقا ، فقد تأثر بالناحية الخيالية ، والشعرية الغامضة السحرية التي تكشف عن الشرق . ولكن اطار ألف ليلة وليلة كان له أبرز الاثر . فشخصية شهرزاد أصبحت شخصية عالمية ، وكل ما أحيط بها في هذا الاطار من حوادث ، أصبح ينبوعا ثرا لتفجر الادب الغزير . وقد انتقلت شخصية شهرزاد الى الاداب الاوروبية كصورة لمن يهتدي الى الحقيقة عن طريق القلب والعاطفة . وكانت القصص التي حكتها شهرزاد — عند الاوروبيين — ترمز الى الرومانتيكية في نصرة القلب والعاطفة على التفكير المجرد ، والهرب من واقع الحياة في عالم سحري .

لقد أقام كتاب الليالي أوروبا وأقعدها وغير مجرى حياتها ، وكان سببا في اندحار الكلاسيكية في بلد عريق بالكلاسيكية كفرنسا ، وظهور الرومانتيكية .

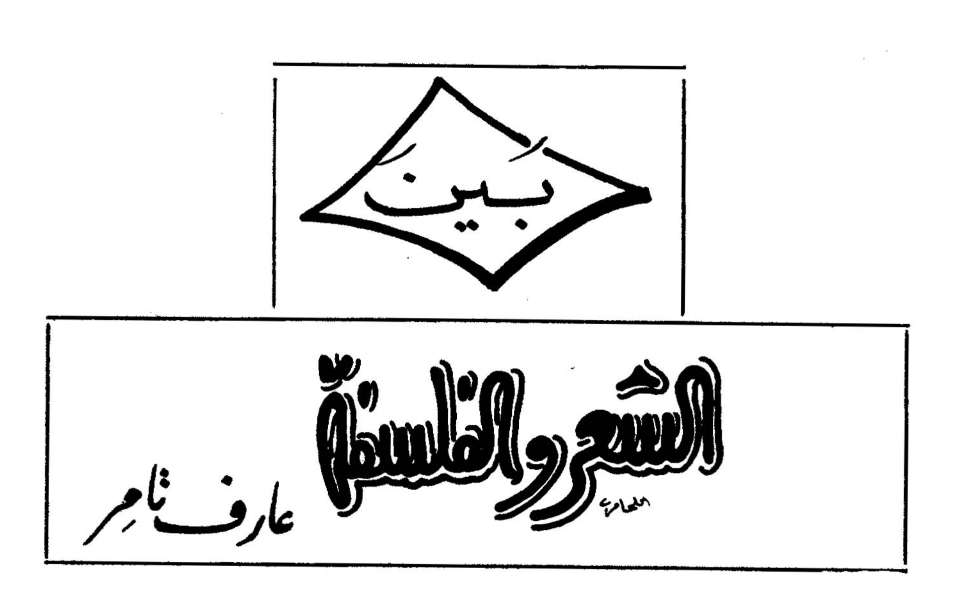
واذهب الى أكثر من هذا فأقول أن كتاب الليالي كان عاملا آخر من عوامل الثورة الفرنسية ، فقد علم كتاب الثورة الفرنسية من أمثال فولتير وروسو ومونتسكيو اسلوبا جديدا في التهجم على أوضاعهم السياسية والاجتماعية .

ان قصص الليالي ، استطاعت أن تحظى باعجاب أكبر أدباء ومفكري الغرب ، اذ انتقلت بالانسان نحو عالم بهيج ، وحققت له حلمه القديم في الحرية المطلقة .

أما شخصية شهرزاد ، فانها رمز انتصار المرأة ، التي أدت بحذقها ومكرها ، وحبكة روايتها ، الى استعادة الملك لارق مشاعره . وتحتفظ الشخصيات النسائية الاخرى ، على كثرتها وتعددها ، وكثيرا ما تنتصر ، تحتفظ بعقيدة سيكولوجية ، تضاعف من غموضها وسحرها ، بغير أن تفلت من العداء التقليدي للمرأة ، نتيجة للسمعة السيئة التي يضفيها عليها المؤلفون .

وأخيرا ، وبدون ادعاء العلم ، فان قصص ألف ليلة وليلة ، تضع للانسان فلسفة للوجود ، كفيلة بجعله ينبهر لسهولتها وتفاؤلها . وهي قصص ذات خيال رائع ، تعكس ثراء وفخامة الشرق ، وقصة مغامرات عجيبة غريبة ، وتعتبر أيضا عنصر اجتذاب الانسان ودعوته الى الترحال .

عبد الجبار محمود السامرائي



الجمع بين الفلسفة والشعر ، تبدو ظاهرة غير غريبة في تاريخ الفكر . وقد قيل : ان الشعر والفلسفة ينحدران من ينبوع واحد ، ويجريان وراء حقيقةسامية تهدف الى استجلاء اسرار الحياة ، وما وراء الطبيعة وماهية الوجود ، والمبدا والمعاد . وقيل ايضا:ان الشعر والفلسفة توامان متممان ولدا من اصل وجوهر واحد لا يكاد ينفصل احدهما عن الآخر ، وقدتكون هذه هي الحقيقة دون جدال .

اجل ... قد يكون النثر وهذا على الغالب اوسع مجالا ، وارحب افقا للفلسفة ولبحوثها ومجالاتها ونظرياتها وتوضيح معمياتها ، لان الشعر ملتزم بحدود، ومقيد بقيود تفرض عدم الخروج والتجاوز والانصياع الى قواعد واصول لا تسمح للخطرات والافكار بالانطلاق الى المجال الرحيب ، على ان كل هذا لم يمنع بعض الفلاسفة من ان يكونوا شعراء ، كما لم يمنع بعض الشعراء من ان يكونوا فلاسفة ... فشكسبير ، والمعري ، وجبران والخيام وغوته شعراء وفلاسفة ، كما ان اديبوليت وجويد وابن سينا كانوا فلاسفة لهم صولات وجولات موفقة في ميادين الشعر .

من هذه الزاوية منطلق لايراد بعض الشواهد

والادلة عن شعر بعض الفلاسفة ، ونبدأ بالفيلسوف الكندي الذي هو بحق اول فيلسوف عربي سجل ابياتا في العزلة والانقطاع للعبادة والتأمل ، والابتعاد عن الناس :

وضائل سوادك واقبض يديك
وفي قعر بيتك فاستجلس
وعند مليكك فابغ العلو
وبالوحدة اليوم فاستأنس

أما أبو بكر محمد زكريا الرازي الطبيب الفيلسوف فيعبر في هذين البيتين عن حيرته في مصير الانسان عندما تفارق روحه البدن المنحل الذاهب الى التراب :

لعمري ما ادري وقد آذن البلى
بعاجل ترحال الى اين ترحالي ؟
وأين محل الروح بعد خروجه
من الهيكل المنحل والجسد البالي ؟

ويأتي بعد الكندي والرازي الفيلسوف الامام فخر الدين الرازي فيتبع طريق من سبقوه بالتساءل عن الروح ، واين تذهب بعد مفارقتها البدن ، وهذا هو الموضوع الذي شغل افكار العلماء منذ القديم وجعلها في حيرة امام هذا السر الالهي المجهول :

ارواحنا ليس تدري اين مذهبها
وفي التراب توارى هذه الجثث
كون يرى وفساد جاء يتبعه
الله اعلم ما في خلقه عبث

هذه المقاطع الثلاث وان كانت قد جاءت معبرة عن معنى واحد وهو اظهار الحيرة في امر الروح والمعاد ، فان ابن الشبل البغدادي يذهب الى ابعد من ذلك بقصيدته الرائية الطويلة ، فنراه يبتكر اسلوبا جديدا بالمخاطبة والمناجاة عندما يخاطب الافلاك ويستنطقها مستجديا الطريق الواضح المؤدي الى الحقيقة :

بربك ايها الفلك المدار
اقصد ذا المسير ام اضطرار
مدارك قل لنا في اي شيء
ففي افهامنا منك انبهار

وفيك نرى الفضاء وهل فضاء
سوى هذا الفضاء به تدار

بعد هذه المقدمة الوجيزة ، لا نرى مندوحة لنا عن الدخول الى حديقة ابن سينا الشعرية الحالية بالافكار الفلسفية العميقة ، والطافحة بالتعابير الروحية المنعشة، فابن سينا هو من اكثر الفلاسفة نظما للشعر، ويعتبر الكندي والفارابي والرازيين وابن رشد وابن زهر مقلين بالنسبة اليه ، ومن الواضح ان ما اورده ابن ابي اصيبعة في معجمه ليس كل ما لابن سينا من شعر، فأحدى المخطوطات في مكتبة ايا صوفيا ، وتزيد على الاربعين صفحة كلها من شعر ابن سينا ، وذكر صاحب عيون الانباء نقلا عن كتاب منطق المشرقيين لمحب الدين الخطيب بعض قصائد لابن سينا ومنها قصيدته اللامية التي مطلعها :

قفا نجزي معاهدهم قليلا
نغيث بدمعنا الربع المحيلا

وقصيدته العينية المشهورة :

هبطت اليك من المحل الارفع
ورقاء ذات تعزز وتمنع

اما بقية قصائده فهي مقطوعات لا تزيد عن بضعة ابيات . من هنا نستطيع ان نقول : بان ابن سينا كان شاعرا كبيرا انتج مقطوعات ادبية رائعة جنح فيها الى الاسلوب الفلسفي الرمزي المعروف في تلك العصور ، واتقن الصناعة حتى اخرج شعره اناشيد عذبة يجد فيها الانسان عزاءه الوحيد ، فهو ككل شاعر عبقري اطلق انغامه مع حفيف اوراق الغصون الوارفة في الصباح وفي المساء على اجنحة النسيم ، فتحولت الى همسات روحية صعدت الى الملأ الاعلى حيث السكون والراحة والاطمئنان .

ولنسمع اليه في المواعظ والحكم والدعوة الى الزهد :

الشيب يوعد والآمال واعدة
والمرء يغتر والايام تنصرم

وكقوله :

ولا تجشمن فما ان ينال
من الرزق كل سوى قسطه

وكم حاجة بذلت نفسها
ففوتها الحرص من فرطه

وكقوله :

كذا دنياك ترأب لانصداع
مغالطة وتبني للخراب

وكقوله ايضا في الزهد من الدنيا وزخارفها :

جولت في هذه الدنيا وزخرفها
عيني فالفيت دارا ما بها أرم
كجيفة دودت فالدود منشأه
فيها ومنها له الارزاء والطعم

اما الخمرة فقد افسح ابن سينا لها مكانا فسيحا في شعره ، ولكننا لا ندري فيما اذا كانت خمرته كخمرة الخيام يشربها للذة والاستمتاع مع الندمان وفي المحانات ، أم انها كخمرة الصوفيين المعتقة الممزوجة بالخيال والصفاء التي تنقل الانسان من عالم المادة والكون والفساد الى عالم الارواح حيث القرب والدنو من مبدع المبدعات ؟

شربنا على صوت القديم قديمة
لكل قديم اول وهي اول
ولو لم تكن في حيز قلت انها
هي العلة الاولى التي لا تعال

ويصفها مرة ثانية ، ولكنه يعطيها تعابير فلسفية وردت في الكتب السماوية :

نزل اللاهوت في ناسوتها
كنزول الشمس في ابراج يوح
قال فيها بعض من هام بها
مثلما قال النصارى بالمسيح
هي والكأس وما مازجها
كأب متحد وابن وروح

ومهما يكن من أمر ، فأعجب ما نراه في شعر ابن سينا موضوع الفخر ، والفخر لم يكن في يوم من الايام ليتفق مع الزهد في الدنيا ـ ولكن في تاريخ حياة ابن سينا الكثير من الصراع مع حساده ، والجهال والمتقولين الذين اتهموه بالجهل والكفر ، ورموه بالزندقة ، فكان حريا به أن يرد على تهجماتهم ، ويدحض مزاعمهم فهجاهم ولكنه لم يفحش ولم يقذع بل كان مسددا وراميا أصاب الهدف دون الخروج على قواعد التربية والادب :

بأي مأثرة ينقاس بي أحد
بأي مكرمة تحليني الامم
مميز من بني الدنيا يميزني
أقل ما في ليس الجهل والعظم
أنا البلاغة فاسألني الخبير بها
أنا اللسان قديما والزمان فم

وقال في حساده :

اني وكيدهمو وما عتبوا به
كالطود يحقر نطحة الاوعال
واذا الفتى عرف الرشاد لنفسه
هانت عليه ملامة الجهال

وله شعر جميل لا يسلكه في عداد الشعراء فحسب ولكن كبار الشعراء لا يأنفون من نسبته اليهم :

تنفس في عذارك صبح شيب
وعسعس ليله فكم التصابي
شبابك كان شيطانا مريدا
فرجم من مشيبك بالشباب

وله أبيات رائعة قالها قبل موته وفيها مناجاة جميلة :

نعوذ بك اللهم من شر فتنة
تطوق من حلت به عيشة ضنكا
رجعنا اليك الآن فاقبل رجوعنا
وقلب قلوبا طال اعراضها عنكا
فان أنت لم تبرىء سقام نفوسنا
فتشفي عماياها اذن فلمن يشكى

هذا فيض من فيض من أشعار الفلاسفة خصصنا القسم الاكبر منه لابن سينا الذي عاش في هذا الشرق قبل الف عام ونيف .

أجل ... كان ابن سينا زهرة من زهرات الادب العابقة بالطيب والشذا ، بل كان مفكرا عظيما أضاف الى الفكر أضخم ثروة عرفتها الانسانية .

ان الفكر الانساني الصالح لا تقيده الاديان والجنسيات ولا تكبله التخوم والحدود ... انه نداء الوجدان ينطلق في كافة الارجاء ليهدم ويبني الى أن يلتقي بالحقيقة ويصل الى الهدف .

سلمية ـ عارف تامر



ابو العلاء..

ورسالته الصاهل والشاحج

خليل الخلايلي

ما مررت يوما بمعرة النعمان في طريقي الى مدينة ـ حلب ـ او في طريق عودتي منها الى العاصمة السورية ـ دمشق ـ الا ورجعت بمخيلتي القهقرى عشرة قرون او تزيد ، لاعوج على بيت فسيح الارجاء موطد الاركان عليه سيماء الابهة والوقار ، ذلك هو بيت قاضيها ـ عبد الله بن سليمان ـ سليل الاسرة التنوخية الباذخة في عراقة اصولها واحسابها وامجادها .

والمح اول ما المح في فناء المنزل طفلا صغيرا مجدورا ذهب مرض الجدري بنور عينيه فأصبح ضريرا يتلمس طريقه بعناء في ارجاء الدار ، وان كانت مخايل الذكاء لاتفارق قسمات وجهه الطفلي الحزين .

هذا الطفل الصغير القابع في زاوية من زوايا الدار الكبيرة العريقة بثوبه الاحمر الفضفاض ، هو نفسه شاعر المعرة الخالد واديبها العظيم وحكيمها وفيلسوفها الذي لم تشهد له ديار العروبة من اقصاها الى اقصاها مثيلا

ومعرة النعمان هذه التي شرفت بانجاب مثل هذا الرجل العظيم ، هي مدينة صغيرة ، بل قل بلدة كبيرة تتوسط المسافة بين مدينتي ـ حلب ـ و ـ حماة ـ وتقوم على بقعة طيبة الهواء معتدلة المناخ ، تحيط بها كروم العنب والتين واشجار الزيتون والفستق ، وتعتبر من اجمل مصايف سورية الشمالية. وهي موجودة على بقعتها تلك منذ اقدم الازمنة ، ويقال انها سميت بمعرة النعمان نسبة للصحابي الجليل ـ النعمان بن بشير الانصاري الخزرجي ـ الذي فقد فيها أحد انجاله فحزن عليه حزنا شديدا فقالوا : ـ معرة النعمان ـ اي : ـ حزن النعمان ـ ، وكان قد ولي ـ حمص ـ للخليفة الاموي ـ مروان بن الحكم ـ في حين يقول بعض المؤرخين أن اسمها يرجع الى اصول سريانية مغرقة في القدم ، بمعنى ـ المغارة ـ وقبيلة ـ تنوخ ـ التي ينتسب اليها ـ ابو العلاء ـ من القبائل العربية اليمانية المشهورة التي يرتفع نسبها الى ـ قضاعة ـ من حمير ـ فكهلان بن سبأ .

وقد استوطنت في جهات ـ الحيرة ـ عاصمة المناذرة في الجاهلية بعد رحيلها عن اليمن في اثر خراب سد مأرب ، وكان لها شأن عظيم في زمن ـ النعمان بن المنذر ـ ملك الحيرة .

ثم دخلت الاسلام وانتقلت بطون منها الى الشام

واستوطنت في ـ معرة النعمان ـ وانساحت من ثم في جميع انحاء الشام ، وغلبت على حكم جبل لبنان ، مدة من الزمان الى ان اطاح بسلطتها الامير ـ فخر الدين المعني ـ في القرن السابع عشر الميلادي .

فأبو العلاء على هذا فرع من دوحة عربية سامقة ومن أسرة ذات علم وفضل وسيادة ، ورثت العلم والقضاء والفضل كابرا على عن كابر أجيالا متتالية .. وفي ـ محمد بن سليمان ـ عم أبي العلاء يقول ـ الصنوبوي ـ شاعر حلب المشهور :

بأبي يابن سليمـا
ن لقد سدت تنوخـا
وهم السادة شبـا
نا لعمري وشيوخـا

ولا يزال فيها بقية من فضل وشعر وأدب الى يومنا هذا .

● مولده ونشأته :

ولد ـ أبو العلاء ـ في يوم الجمعةالثامنوالعشرين من شهر ربيع الاول سنة٣٦٣ هـ قبيل مغيب الشمس بقليل ، وسمي ـ أحمد ـ وكني بأبي العلاء ، فقد كان من عادةا لعرب ان يكنوا اولادهم عند تسميتهم .

ولم تعجب هذه الكنية صاحبها عندما كبر ، ونراه يضيق بها حرجا فيقول :

دعيت ابا العلا وذاك مين
ولكن الصحيح ابو النزول

وفي السنة الرابعة من عمره أصيب بالجدري الذي ذهب بعينه اليسرى ، ثم لم تلبث عينه اليمنى ان غشيت بالبياض وفقدت البقية الضئيلة من قوة الابصار ، والبس ثوبا أحمر اثناء مرضه فكان اللون الاحمر آخر مارسخ في ذاكرته القوية من الوان .

اخذ العلم أول ما اخذه عن ابيه ، ثم ارتحل الى ـ حلب ـ التي كانت احدى الحواضر الكبرى آنذاك ، وهي تعج بكبار العلماء والادباء اللغويين والشعراءالذين تحلقوا في بلاط الامير الحمداني العظيم ـ سيفالدولة ـ الذي قال عنه الرواة انه لم يجتمع بباب الخلفاء بعد ـ الرشيد ـ مثل من اجتمع بباب سيف الدولة من العلماء والادباء ويكفي ذلك البلاط فخرا انه أنجب للعربية شاعرها الفحل ـ أبا الطيب المتنبي ـ مالىء الدنيا وشاغل الناس .

ثم ارتحل عن ـ حلب ـ الى ـ انطاكية ـ ثم الى ـ طرابلس الشام ـ مارا بـ ـ اللاذقية ـ حيث نزل بدير على أحد الرهبان الذين درسوا الفلسفة وفيها أنشده هذه الابيات التي رواها ـ ياقوت الحموي ـ والتي تظهر شيئا من الحيرة والتشكك .

في اللاذقية ضجة
ما بين أحمد والمسيح
قس يعالج دلبسة
والشيخ من حنق يصيح
كل يؤيد دينه
ياليتشعريماالصحيح

ومن ـ طرابلس الشام ـ عاد الى مسقط راسه في ـ المعرة ـ وأقام فيها زمنا ثم ارتحل الى ـ بغداد ـ حاضرة الخلافة العباسية آنذاك ، والتي كانت تغص بالمجامع الادبية والفلسفية ، ومجالس المناظرة في الفقه والكلام .

وفي ـ بغداد ـ علا صيته وبهر البغداديين منه علم غزير وشعر رفيع وفضل جم .

وبالرغم من كل ما لاقاه من ترحيب في ـ بغداد ـ فان الحياة لم تطب له فيها ، سيما بعد ان اصطدم بالشريف المرتضي في قصة مشهورة . فعاد الى ـالمعرةـ متذرعا بمرض امه والفقر الذي لحقه في ـ بغداد ـ وارتحل عن بغداد لست بقين من رمضان سنة ـ ٤٠٠ هـ ـ حزينا على فراقها ، ولم يستمع لاهل ـ بغداد ـ الذين الحوا في استبقائه وبذلواله المال ومنوه الاماني ورغبوه في الوان النعمة .

في طريقه من ـ بغداد ـ بلغه نعي امه التي احبها والتي تجشم المصاعب في لقياها ، فحزن اشد الحزن وأرسلرسالته المشهورة لاهل المعرة ، يطلب فيها منهم عدم استقباله ، ودخل بيته في المعرة حزينا كئيبا

وحيدا ، واعتزل الناس ، وعاش على طريقة الفلاسفة والزهاد والمتقشفين .

● **آثاره :**

لم يفضل – أبو العلاء – العزلة ايثارا للراحة ، بل عكف في محبسه على التأليف ونظم الشعر والتدريس لان شهرته الواسعة جعلت كثيرا من محبي العلم يقصدونه ليتخرجوا على يديه في اللغة والادب والفلسفة والشعر ، وأسعفه الحال على املاء رسالته وكتبه وشعره على تلاميذه الكثر الذين جاؤوا من أقاصي المعمورة .

ولم تصعد روحه الى بارئها حتى كان قد ترك ذخيرة من الشعر والادب والرسائل ، ستظل مبعث فخر واعتزاز واعجاب لابناء العربية دهورا طويلة .

ولو كانت تلك الاثار باقية الى يومنا هذا ، لشكلت وحدها مكتبة علائية رائعة لا تدانيها مكتبة شاعر أو فيلسوف عربي على الاطلاق .

واشهر آثاره الباقية هي :

١ – ديوان سقط الزند : وهو ديوان كبير جمع فيه – أبو العلاء – شعر المرحلة الاولى من حياته ، وهي مرحلة الشباب ، وتضم شعر المديح والرثاء والغزل والموضوعات التقليدية ، والدرعيات ، وهي قصائد مفردة لوصف الدروع .

٢ – ديوان اللزوميات : أو لزوم ما لا يلزم ، وهو ديوان شعر كبير يملأ صفحات مجلدين كبيرين وفي هذه القصائد ينثر الشاعر أفكاره وفلسفته ومذهبه في الحياة .

هذا من حيث الشعر ، أما نثره ورسائله فأشهرها :

١ – رسالة الصاهل والشاحج : التي نحن بصدد دراستها في مقالتنا هذه .

٢ – رسالة الغفران : الذائعة الصيت ، والتي وجدت لها صدى عالميا وخاصة في الشعر الايطالي ، بعد أن استوحاها الشاعر الايطالي العظيم – دانتي – في ملحمته الرائعة – الكوميديا الالهية – .

٣ – رسالة الملائكة : التي أصدرها المجمع العلمي العربي في دمشق .

٤ – الفصول والغايات : التي قيل أنه حبكه مقلدا القرآن الكريم .

وغير هذه الاثار المذكورة ، هناك فيض من الرسائل التي أملاها – أبو العلاء – ولكنها ضاعت ، بسبب غزو المغول لمعرة النعمان وتدميرها ، وقتل اكثر من ثلث سكانها ، وبسبب احتلال – المعرة – من قبل جيوش الصليبيين ، وهجرة اهلها الى حمص وحماه ودمشق .

ولعل أشهر مفقوداته : كتاب القائف ، وقد تكلم فيه على ألسنة الحيوان وفيه يقول الاديب الإندلسي – محمد بن عبد الغفور الكلاعي – : – ولابي العلاء المعري في كتاب – القائف – احسان مشهور وابداع كثير موفور . وهو أكثر من كتاب كليلة ودمنة ورقا ، وأفسح طلقا ، وأطيب شميما وعبقا – .

وكتب ورسائل أخرى لا مجال لذكرها في هذا المقال .

ونعود الآن للكلام على موضوع بحثنا الا وهو :

رسالة الصاهل والشاحج :

وهي من فرائد أبي العلاء أملاها قبل – رسالة الغفران – بخمس عشرة سنة . وتقع في طبعتها الجديدة بتحقيق الدكتورة : – عائشة عبد الرحمن – « بنت الشاطىء » في – ٨٠٦ صفحات من القطع الكبير ، وصادرة عن – دار المعارف بمصر – في سلسلة – ذخائر العرب – سنة – ١٩٧٥ – ، في طبعة أنيقة مشروحة المفردات ومترجمة الاعلام ، وملحقة بها فهارس لاعلام الاشخاص ، والقبائل والجماعات ، والحرفيين ، والبلدان ، والاماكن والايام – الحروب – وأعلام الحيوان ، والكتب ، والامثال ، والشواهد الشعرية .

وهي مصنوعة بالتالي صنعة لامثيل لها ، وناهيك

بالدكتورة ـ بنت الشاطىء ـ من عالمة مختصة في آثار أبي العلاء ، خاصة وأنه قد سبق لها أن أخرجت ـ رسالة الغفران ـ في أكثر من طبعة .

ورسالة ـ الصاهل والشاحج ـ كانت في حكم الضائعة ، الى أن عثرت العالمة المحققة الدكتورة ـ بنت الشاطىء ـ على نسختين مخطوطتين أصليتين موثقتين عاليتي الاسناد في ـ الخزانة الملكية بالرباط ـ ، فقابلتهما معا ، وأحيت للناس من جديد هذا الأثر الأدبي العلائي الخالد

الباعث على املاء الرسالة :

ورسالة ـ الصاهل والشاحج ـ كغيرها من أدبنا القديم ، أمليت وقد مت للامير ـ عزيز الدولة أبي شجاع فاتك الرومي والي ـ حلب ـ من قبل الفاطميين أيام ـ الحاكم ـ وبعض أيام ـ الظاهر ـ . .

أما الباعث على تأليفها ، فكان بناء على طلب والحاح أبناء أخي ـ أبي العلاء ـ لكي يرفع مظلمتهم الى والي ـ حلب ـ بسبب ارض لهم قاحلة ، رتب عليها الجباة مالا تستحق من ضريبة ، فهي بلغة عصرنا ـ عرض حال ـ لا أكثر ، يطلب فيه ممليه رفع حيف أصاب بعض أقاربه .

ولم يستخدم ـ أبو العلاء ـ في كتابة شكواه ، الاسلوب المباشر ، بل صاغها على ألسنة الحيوانات على شكل تمثيلية بطلها ـ الشاحج ـ أو البغل الذي يكدح في الأرض القاحلة التي لا خير فيها .

ويتخيل ـ ابو العلاء ـ « الشاحج » وقد أنطقه الله تعالى بقدرته ، وها هو ذا يجأر بشكواه .

موضوع الرسالة :

ينسحب ـ أبو العلاء ـ بلطف ، ويترك المسرح للشاحج ، وهو معصوب العينين منطو على همومه وهواجسه ، ومن بعيد يسمع صهيل فرس ما يلبث أن يقترب من الشاحج ويترجل عنه فارسه ليرد الماء ويستريح قليلا قبل متابعة السفر وعندئذ يبدأ الحوار بين « الصاهل » « الحصان » و « الشاحج » « البغل » ويطلب « الشاحج » من خاله « الصاهل » أن يحمل له شكواه المنظومة شعرا الى « حلب » بعد أن عرف أنه في طريقه اليها .

ولكن « الصاهل » يأنف من هذه الخؤولة المهينة التي يمت بها اليه البغل ، فيوسعه تحقيرا وسخرية ، ويتطور الجدل بينهما الى خصومة حادة ، يقترح الصاهل أن يحتكما فيها الى حمامة كانت تحط على غصن قريب .

ويرفض « الشاحج » تحكيم الحمامة ، وهي المشهورة بالكذب والحمق والخفة ، ويقترح أن يكون الحكم بعيرا في ابل وردت الماء هناك .

وتغتاظ الحمامة مما سمعت من قدح الشاحج فيها . فتسرع الى الجمل وتلقي عليه القصة ، مع قلب كلام البغل فيها وفي الجمل ، فيندفع الجمل مهتاجا فيهجم على الشاحج في حنق مسعور

ثم تنكشف مكيدة الحمامة ، ويعتذر « أبو أيوب » «الجمل » للشاحج ، ويتطوع لحمل شكواه الى الحضرة العالية ، التي عدل صاحبها عن الشعر الى نوع آخر من الكلام ، لم يفهم « أبو أيوب » منه شيئا فيظن العته والمس بالشاحج .

أما أخبار مدينة ـ حلب ـ فيكلف الشاحج بها « الثعلب » ويطلب منه ان يتجول في المنطقة ، ويأتيه بأنباء ـ حلب حرسها الله ، وبأنباء أهلها وسكانها وحالهم في جفلة الخوف من غزو الروم ، وينقل اليه عن رؤية عين ، أخبار السياسة والحرب والبلاط والمجتمع .

ويقوم ـ الثعلب بواجبه خير قيام ، ويأتي بكافة أنباء الساعة ، حتى اذا استوعب الشاحج ما أراد من أنباء ، عرف مواقف الرؤساء والقادة .

يعود ـ أبو العلاء ليظهر على المسرح وينهي التمثيلية ويقدم تحية الختام ـ للسيد عزيز الدولة

وتاج الملة امير الامراء ، اعز الله نصره — .

قيمة الرسالة :

ترجع الدكتورة — بنت الشاطىء — أهمية الرسالة في مقدمتها اللطيفة الى كونها — وثيقة تاريخية هامة لفترة حرجة من تاريخ مصر والشام ، رواها شاهد من عصرها رصد ما يعرف في التاريخ بجفلة عزيز الدولة ، واستوفى اخبارها واعطى تفسيرها — ومع ان الدكتورة محقة كل الحق فيما ذهبت اليه ، الا انني ارى أن أهمية الرسالة وقيمتها تنبعان من الاسلوب العلائي الرفيع الذي لا يجارى .

وقد صدق — الكلاعي — عندما قال : — ليس لابداع أبي العلاء غاية وانتهاء — ، فمع أن موضوع الرسالة يظهر للوهلة الاولى ساذجا وبسيطا ، الا ان اسلوبها سرعان ما يتألق على شكل ساحر يخلب الالباب وتظهر من وراء هذا الاسلوب . شخصية أبي العلاء الفذة ، فاذا به كالغواص الماهر الذي يطيل الغوص الى اعماق البحر ويعود حاملا معه سني اللآلىء والدراري التي تبهر الابصار .

واذا كان — ابو العلاء — لا يغوص الى أعماق البحر ، فانه يغوص الى أعمق اعماق اللغة العربية ، ويعود بمفردات لا احلى ولا اجمل ولا أصعب ، وتراه يصوغها بمهارة فائقة وبأناة العالم المتمكن ، الذي لا تظهر على أسلوبه سمات التكلف أو التصنع ، وانما يظهر وكأنه ينثال سلسلا عذبا على الارواح الظمأى ، فتصدر عنه وقد ارتوت أصالة وذوقا وعلما ومعرفة.

فهو وان كان قد اختار اسلوب الحوار على ألسنة الحيوانات ، الا أنه لم يختر الحوار الجملي القصير ، بل يطيل الحديث ، فقد يتكلم أحد أبطال المسرحية فاذا به يطنب ويطيل ، ويتنقل من فكرة الى فكرة ، يستشهد بمثل أو حكمة او بيت شعر او بشطرة رجز ، فيمتع القارىء أيما امتاع .

والقارىء والحالة هذه لا يسعه الا ان يسحر بعبقرية — المعري — والمعيته وعمق تفكيره واتساع معرفته ، فهو كالبحر المحيط الذي لا نهاية لحدوده انه حقا معجزة العرب والعربية وزوبعة الازمنة والدهور

واذا كانت رسالة — الصاهل والشاحج — تنبىء عن قدرات المعري اللغوية الهائلة واطلاعه الفريد ، الا ان استعمال الكناية والتورية والالغاز والمعميات ، تجعلها صعبة جدا على القارىء اللبيب فهو ان لم يتذرع بصبر — ايوب — غير قادر على اتمام قراءتها ، وباعتقادي ان القارىء الاديب المثقف لا يمكنه ان يستوعبها من أول قراءة ، ولا بد . من قراءة ثانية متأنية ، حتى يدرك سر عظمة منشئها ، وسر عظمة هذه اللغة التي اورثنا اياها اجدادنا الخالدون — رضوان الله عليهم —

والدكتورة — بنت الشاطىء — ادركت ما تنطوي عليه الرسالة من صعوبة ، فوعدت بتقديمها في طبعة مبسطة وبلغة اهل هذا العصر ، لتعم فائدتها عددا اكبر من ابناء امتنا المتعطشين الى فهم دقائق هذا الكنز الذي لا يثمن .

نكتفي بهذا القدر في رحلتنا مع الرسالة ، لنترك للقارىء الكريم الفرصة للتعرف على هذه الذخيرة النادرة .

وعسى ان تكون لنا عودة على صفحات — الثقافة — الغراء للحديث عن اثر آخر من آثار — أبي العلاء ان شاء الله .

● دمشق

خليل خلايلي

حديث

عبد الرحيم الحصني

حديثك لا الهزار ولا الرباب ... ووجهك لا الربيع ولا الشباب

فديتهما عطاء مستمرا ... ووعدا ما ألم به ارتياب

اذا مرت ببالي من صداه ... ترانيم يهدهدني الشراب

طويت على محبته جناحي ... فلا أمل سواه ولا رغاب

سعادة لهفتي وشقاء لهوي ... أنا الشكوى ، وأنت لي الجواب

هدتني للهوى عيناك حتى ... كأن السحر في عصبي مذاب

فحينا استجم به · وحينا ... يساورني ضياع · واغتراب

بوادر لا أجيد لهن وصفا ... وليس لهن عن خلدي غياب

دلالك لا أسميه دلالا ... سماء بين أضلعها سحاب

يلوح بالرعود وليس يهمي ... فلا ري لدي ولاخصاب

وأطياف مموجة عليها ... شراعي يستبد به العباب

تكاد الريح تفتك بالصواري ... فلا سفر يصح ولا اياب

فيا أملا طويت به الليالي ... وحيدا لا تؤانسني صحاب

اليك ومنك ماروت القوافي ... وحسبي من محبتك العذاب

عبد الرحيم الحصني

نزيه ضاحي

بين اللذة والألم

في شعر نزار قباني

بين اللذة والالم من الناحية الانسانيةبون شاسع من الفروقات والتناقضات الرئيسية التي تتجسد من خلال النظرة الفردية للامور ، وذلك عائد بطبيعة الحال الى أن الناس العاديين ، يختلفون بشكل جوهري فيما بينهم ، عندما يحاولون وضع تعريف محدد للذة وآخر للألم ، لأن لكل انسان عادي قاموسا ارتضاه لنفسه ، ودون فيه تفسيرات محددة لكل ما يدور حوله من مصطلحات أخذت معانيها من خلال استعماله الشخصي لها ، فكل امرىء وبغض النظر عن انعكاساته السلبية أو الايجابية هو مثار لذة وألم في آن واحد ، وذلك حسب الارضية الفكرية التي تمتص هذا الامر وتحلله ، وكثير من الامور التي تعتبر ينبوع لذة لبعضهم قد تكون مدعاة للالم لدى بعضهم الآخر .

اذن ان الامور عند الناس العاديين من سواد الشعب نسبية ، ولا تخضع الى حدود دائمة وواضحة ومصطلحاتهم في هذا المجال زئبقية وفضفاضة ، تسيل منها عدة جداول من المعاني ولا تخلو أحيانا من الاخطاء الفاضحة التي تنتج عن فقدان الوعي التحليلي وانعدام النظرة الواقعية النقدية الصحيحة . ومن ثنايا المنظور الفلسفي لهاتين المقولتين (اللذة والالم) تبرز حدود وأسوار عالية تفصل بينهما فصلا أساسيا وحادا ، وقد اختلفت المدارس الفلسفية منذ الفجر الاول للتاريخ حولهما ، ودارت معارك فلسفية صاخبة بسببهما مازال صداها يتجاوب حتى الآن في أروقة التنظير الفلسفي ، ولكن من الملاحظ أنها تتفق جميعا على أن اللذة لها مصادر وينابيع أساسية ، تختلف تماما عن مصادر الالم ولا تخلط بينهما بشكل تعسفي كما يحدث لدى المنطق الانساني الفطري الذي يروض الكثير من المفاهيم حتى تلائم فكره ، وتشعره بالرضى والسعادة التي قد تكون في أحيان كثيرة مخادعة ، ولا تعدو كونها سرابا يعلل النفس بالارتواء والشبع وهي أبعد ما تكون عن ذلك .

ولم يقف علم النفس بكافة فروعه موقف المتفرج ازاء هذا الصراع الفكري الذي دار في عالم الانسانية حول اللذة والالم ، ومحاولة تسوير هذين المصطلحين بمفاهيم واضحة وصحيحة تضم خلف بنيانها تصورا متبلورا يرضي كافة الاطراف المعينة بهذا الصراع وقد علا ضجيج الخلاف بين رواده بشكل لم يسبق له مثيل نظرا لان النفس الانسانية كتلة من التناقضات الشائكة وسبر أغوارها ليس أمرا سهلا على الاطلاق والغوص عميقا داخلها يحتاج الى تجارب معقدة ومتنوعة ومهارات فريدة تجعل هذا الامر الحيوي مستحيلا في أحيان كثيرة .

أما الفنون الجميلة من شعر ونحت ورسم وغناء وموسيقى وغيرها ، فانها جميعا تدعو الى اللذة لذة الانسان وتحارب الالم ، واللذة هنا ليست بالضرورة ما يقترن بحاجات الجسد والغرائز الجنسية ، بل هي مفهوم واسع وشامل ويكاد يكون مطلقا بدون عائق أو حد يكبح امتداده وشموله ، وهي متفقة فيما بينها على أن الانسان هو أغلى ما في هذا الوجود دون تمييز طبقي أو عرقي أو ديني، وهذا لا يعني أن عنصر التطاحن والصراع غير موجود هنا ، والاصح أن نقول ان أوار معركة ضروس ، قد تراقصت ألسنته مدة طويلة جدا بين مدرستين رئيسيتين تدعي كل منهما الريادة في هذا المجال ، وهاتان المدرستان كما لا يخفى هما مدرسة الفن للفن التي تعتمد الفلسفة المثالية منطلقا لها ، ومدرسة الفن للحياة التي تعتمد في أسسها على الفلسفة الواقعية المادية ، وتعتبر المدرسة الاولى الفنون كافة ترفا فكريا يهيم في السماء بعيدا عن الانغماس في مشاكل الانسان واحباطاته ، أما المدرسة الثانية فانها تسخر الطاقات الجبارة الكامنة في حنايا الفن لخدمة الانسان وتطويره وتحريره وزخرفة واقعه بالظلال والالوان ، وقد صار من البدهيات القول ان هذه المعركة الجميلة / ان صح التعبير / قد جسمت بشكل تام ومطلق لصالح المدرسة الثانية ، التي رفعت شعار الفن للحياة عند بوابة الانسان الحديث وجعلت منه قوس نصر تعبر من خلاله الاجيال المعاصرة ، هذا الشعار الذي اثبت صحة مضمونه الفكري والايديولوجي في كل المواقف التي تعرض لها بالدراسة والنقد والتحليل .

هذه المقدمة الطويلة كان لا بد منها لكي تكون مدخلا مساعدا للدراسة التي نحن بصددها ، لان كل شاعر يحمل في طيات هويتين في آن واحد ، هويته كانسان بالدرجة الاولى ، وهويته كشاعر بالدرجة الثانية ، وهو كانسان يعتبر قطرة من هذا المستنقع الانساني الذي يمور بالامراض والجراثيم والآلام ، ويضج بالمآسي والويلات، وهذه القطرة طبعا تحمل في تركيبها الكيميائي كل الخواص الفاسدة التي يتكون منها هذا المستنقع وهو بالتالي مشدود الى المجتمع الانساني بحبال فولاذية لا فكاك منها ، مهما حاول التملص أو الهرب ، وأما كونه شاعرا فهذا امتياز فكري يعطيه الحق في أن يكون له عالمه الشعري الخاص الذي يمارس فيه كل الطقوس ، ويضيء فيه كل الشموع دون عائق أو مانع ، كما أنه يسعى للاغتسال من هذه الاوضار التي تغطيه ضمن معايشته للواقع ، أو على الاقل يحاول استنبات صدفة قاسية الجوانب، تحميه من العدوى، ليتفرغ لتشخيص الداء ، وتحديد الدواء بدقة ونجاح .

والشاعر (نزار قباني) هو بطبيعة الحال انسان وشاعر، له ما لكل الناس من آمال وآلام وملذات وأحزان فما هي يا ترى التفاسير التي يتبناها لمفهومي اللذة والالم ؟ فهو كشاعر له مدرسة شعرية متميزة ، تتبنى في خطوطها العريضة مذهبا أدبيا معروفا يدعو الى اللذة والمقصود باللذة هنا ما يرتبط بالمرأة كجسد جميل من عشق وحب وجنس وغرام ، وشاعرنا (نزار) في كل ما كتبه من شعر بديع ورائع خلال أكثر من ربع قرن من التجارب الشعرية المتواصلة ، كان يبشر بهذا المذهب بجرأة غريبة، تجاوزت كل الحدود والتصورات ، فصار يحمل بجدارة تامة لقب / شاعر المرأة / حتى أنه استطاع في بعض القصائد ، أن يصور خلجات المرأة ومشاعرها وأحاسيسها ، بشكل تقف عنده المرأة نفسها عاجزة عن مجاراته في هذا التصوير الصادق .

ان التحريض على الحب والدعوة الى نهب الملذات الحسية كيفما اتفق ، كان السمة البارزة في مدرسة العشق التي أرسى قواعدها العاطفية شاعرنا (نزار) وهو في كتابه / قصتي مع الشعر / يعترف بصراحة مذهلة أنه أحب وبعنف أكثر من أربع نساء حبا حقيقيا،

أما سحب الغرام التي مرت في سمائه ابان مرحلة الطيش والشباب ، فهي أكثر من أن تعد أو تحصى ، ونحن نصدق تماما هذا الاعتراف المتوقع منه ، وان كنا نعتقد جازمين أن اعترافه الخطير هذا ، لا يعكس سوى جزء بسيط من الحقيقة ، ففي كل قصيدة من قصائده عن المرأة ، تجربة حب تنطق بالصدق وتشع ، بالامانة والاخلاص ، لان هذه القصائد ما كانت لتأتي بهذا الشكل العفوي ، ما لم تكن لقطات تستند الى أرضية صلبة ومتمرسة بالخبرة والمهارة ، يقول في احدى قصائده :

لم يبق نهد أبيض أو أسود
الا ومرت فوقه عجلاتي
خيطت من جلد النساء عباءة
وشيدت اهراما من الحلمات
الجنس كان مسكنا جربته
لم ينه أحزاني ولا أزماتي
مأساة هارون الرشيد مريرة
لو تدركين مرارة المأساة

كما يقول في قصيدة أخرى :

سمراء صبي نهدك الاسمر في دنيا فمي
نهداك نبعا لذة حمراء تشعل لي دمي
متمردان على السماء على القميص .. المنعم
صنمان عاجيان قد ماجا ببحر مضرم

الى أن يقول :

نهداك ما خلقا للثم الثوب لكن الفم

ان تعرية المرأة بهذا الشكل الماجن الفاضح ، لايعتبر محض صدفة أو نزوة عابرة ، لانه يتكرر دائما عن سابق تعمد وتصميم في أكثر قصائده ، ان لم نقل كلها ، ومن البدهي القول : ان (نزار) عندما يوظف أحد أعضاء المرأة / النهدان / في شعره مثلا ، انما يوظفه لغاية الاثارة والتشويق ودغدغة الاحاسيس الجنسية ، لا بقصد تصعيدها ، بل بقصد الهابها وتفجيرها ، وهو بذلك يكشف الستار عن جسدها كله ، ويسقط عن وجهه آخر قناع للحياء والخجل ، وجسد المرأة التي يضج بالفتنة والاغراء ، يمكن أن يوظف ضمن اطار طبقي يدعو الى تحريرها ، والاخذ بيدها نحو واقع أكثر انسانية وعدلا ، ولكن ما فعله (نزار) كان أبعد ما يكون عن هذا المفهوم الناضج ، وتحرير المرأة وتعليمها وتثقيفها أشياء لم تخطر بباله على الاطلاق .

وفي قصيدة / أنا ياسيدتي / يقول :

كان في صدرك ديكان جميلان
يصيحان كثيرا وينامان قليلا

ويقول أيضا من نفس القصيدة :

كان في صدرك حقلان من القطن
كان نهداك خروفين صغيرين
وكانا يأكلان العشب من صدري

الى أن يقول :

كان نهداك حصانين بلا سرج
وكانا يشربان الماء من قصر المرايا

ان هذا الوصف الحسي الدقيق لبعض أعضاء المرأة يدل على أن (نزار) يغمس قلمه بحبر الواقع ، ثم يروح يصور لوحات أخاذة فيها كل التماعات الحقيقة والصدق والمعاناة ، وهذه اللقطات الجنسية الصريحة تتكرر في كل قصائده تقريبا ، وان كانت في بعضها أقل عريا وجراة وجموحا ، ولن نكثر من الشواهد على ذلك لان شعره شائع ومعروف في هذا المجال .

اذن ان الاستقراء الكامل لشعر (نزار) يعطي انطباعا أساسيا ومبدئيا ، ويرسم قناعة تامة لا يشوبها شك في أنه لا يفهم اللذة الا انها امرأة عارية ، تفتح ذراعيها الناعمتين ، ليشبع من لحمها فقط نزواته وغرائزه ، فهو يتمنى لو أنه عشق نساء الارض قاطبة ، ولنتصور كم من الوقت سيستهلك لارضاء هؤلاء النسوة جميعا ، وبطبيعة الحال لن يبقى لديه وقت للتفكير في أمر آخر مهما صغر شأنه .

وهنا نود طرح هذا السؤال : هل كان طعم الحياة دائما عند (نزار) ينضج بالعسل واللذة والجنس ، ولم يعرف مطلقا طعم الالم والسحق والتمزق والمرارة ؟ .

ان الجواب عن هذا السؤال هو بالنفي قطعا ، لانه لا يمكن لاي انسان كائنا من كان أن يكون بمنجاة من سوط الالم الذي يلهب ظهر الانسانية بشكل متواصل ، فلكل منا نصيب من اللذة ، ونصيب آخر من الالم .

وشاعرنا / نزار / الذي يتقلب في أحضان اللذة منذ مدة طويلة ، حان الوقت لان يأخذ حصة كبيرة من الالم والعذاب والشقاء ، لان اللون الاحمر لا يعني بالضرورة دائما لحم المرأة ونعومة جلدها ، فقد يعني أحيانا دم الفواجع والكوارث والمصائب ، ودخول مدينة الحزن لا يكون عن طريق واحد هو حب فاشل لامرأة جميلة ، فقد يكون عبورا مؤلما على جسر التمزق واللوعة ، وكم يكون محزنا أن تنغرز أنياب الالم الرهيبة في جسد ناعم لم يتعود سوى لمسات النساء ومداعبة أصابعهن الناعمة

ان أول ناب لتنين الالم أنشب أظفاره في جسد شاعرنا حتى الاعماق ، كان وفاة والده ، وفي هذا المنعطف الانساني الخطير من حياة شاعرنا / نزار / يظهر الانسان الحقيقي في شعره ، هذا الانسان الذي كان يظهر دائما بمظهر العاشق الولهان الذي يلعب بالنساء بمهارة ساحرة ، تجعل له في صدر كل واحدة منهن معبدا رخاميا رائعا لا تنطفيء نار ذبائحه ، ولا يتلاشى بخور ملذاته ، ولاول مرة يفجر معول الالم في صدر شاعرنا ينبوع الحزن والهوان بشكل فياض لم يسبق له مثيل .

أي حدث أشد جللا وهولا من أن يفقد المرء والده وهو في ميعة الشباب ، لعمري انها أكبر المصائب وأعظم الكوارث بلا جدال ، والسبب في ذلك يأتي من ناحيتين رئيسيتين : فالموت من ناحية يذكرنا بتفاهة الحياة وعبثها ولا معقوليتها وبأنه الحقيقة الوحيدة فيها ، ومن جهة ثانية يجعلنا نشعر بأن الارض التي كنا نستند عليها قد مادت من تحتنا وتشققت بين أرجلنا ، وعلينا أن نؤسس أرضا جديدة في عالم جديد مبهم دون مساعدة من أحد .

لقد فجع / نزار / بوفاة والده ، وانطوت عن رأسه تلك المظلة التي كانت تقيه أمطار المصائب والهموم ، وانطفأت تلك المنارة التي كانت تنثر حول زورق أيامه النور والهداية ، وتحطم ذلك الصدر الحنون الذي كان له ملاذا أمينا من المتاعب ، وشلت تلك اليد المغضنة المعروقة التي كانت تأخذ به وتشد أزره على درب الحياة انه يقف وقد هده الالم ، يمضغ بمرارة شديدة حنظل الموت ، هذا الحدث الرهيب الذي صهر معدنه بنار التجربة الحقيقة ، فأظهر من بين الحطام / نزار / الانسان الاصيل ، الذي يشع بالوفاء والحب والحنان ، لهذا الوالد الشيخ الذي أفنى عمره في سبيل أن يخلق منه رجلا يعتز به بين الناس وقد تجلى هذا الوفاء النادر في هذه القصيدة الرائعة التي تتدفق مزقا من القلب في نهر من الدموع والآهات :

أمات أبوك ؟ ضلال أنا لا يموت أبي
ففي البيت منه روائع رب وذكرى .. نبي
هنا ركنه تلك أشياؤه تفتق عن ألف غصن صبي
هنا ركنه متكاه كأن أبي بعد لم يذهب
وصحن الرماد وتبغه وفنجانه على حاله بعد لم يشرب
بقاياه في الحجرات الفساح بقايا النور على الملعب

لقد بلغه الخبر المريع المدمر ، خبر وفاة والده ، فكان له مفاجأة تامة ، لم يحسب لها حسابا بتاتا ولكنه يأبى أن يصدق ذلك ، فهو يكذب هذا النبأ المفجع ، ليدفع عن نفسه بشكل لا شعوري هول الصدمة المؤلمة التي قد تؤدي به أيضا فيما لو امتصها دفعة واحدة ، ومن المعروف أن مدرسة التحليل النفسي ، تتبنى نظرية / رفض الموت / هذه النظرية التي تقول : ان المرء يرفض للوهلة الاولى أن يصدق موت انسان عزيز عليه ، لانه بهذا الرفض العفوي ، يحمي نفسه من التمزق والتشظي حزنا على الميت ، ولكنه يعود ويروض نفسه بشكل متسلسل وبطيء على قبول هذا الواقع الرهيب ، الذي فرض شبحه المخيف عليه ، وشاعرنا / نزار / لا يصدق خبر وفاة والده دفعة واحدة ، لان هذا التصديق سيفرز رجة قوية أقسى وأكبر من أن تتحملها روحه الشاعرية الرقيقة ، كيف يصدق هذا الخبر المفتعل ؟ وكل ما حوله ينفيه نفيا باتا وقاطعا ، هذي آثار والده وبقاياه تنطق بألف لسان مكذبة له ، وهي ما زالت تزخر بالحيوية والنشاط ، وتفيض

باليقظة والبقاء ، ويتابع شاعرنا تحديد موقفه فوق هذه الدوامة التي تدور به حتى الغثيان فيقول :

بذاكرة الصيف من والدي كروم وذاكرة الكوكب
أبي يا أبي ان تاريخ طيب وراءك يمشي فلا تعتب
على اسمك نمضي فمن طيب شهي المجاني الى أطيب

الى أن يقول :

أشيلك حتى بنبرة صوتي فكيف ذهبت وما زلت بي
فتحنا لتموز أبوابنا ففي الصيف لا بد يأتي أبي

ان حالة عدم التصديق التي عاشها شاعرنا عندما كان جرح الموت ساخنا ، بدأت تتحول بالتدريج الى يقين وايمان ، لان صراع الاشياء الضعيفة التي تخص والده مع حقيقة الموت الجبارة القوية انتهت الى انتصار الموت الذي نشر جناحيه الاسودين فوق هذا المنزل الذي لم يعرف سوى الابتسامات والسعادة ، فهو يوقد بيد مرتجفة شمعة الامل والحياة في كهف الحزن والموت ، ويعلل نفسه بأن شهر تموز القادم مع الصيف سيكون موعدا فعليا للقائه الموهوم مع والده الذي ذهب في رحلة قصيرة ، سيعود منها أكثر قوة وحيوية وشبابا حسب زعمه ، ولكن هيهات لمنطق الموت أن يقبل تحقيق مثل هذا الموعد الذي ضربه شاعرنا مع المستحيل ، وهو بموقفه الساذج البريء هذا ، يصور ببراعة معجزة موقف الطفل الذي يأبى تصديق الامور التي تكون مبعث حزن وشقاء له ، وخاصة عندما يفقد أباه ويتساءل عن سبب غيابه عن البيت ، فان الجواب التقليدي الذي يتلقاه في مثل الحال ، هو أن والده قد ذهب في سفر قصير وسيعود قريبا منه ، لانه لا يمكن تفسير معنى الموت لطفل قاصر في فهمه وادراكه ، وشاعرنا كما قلنا يعكس في بيته الرائع هذا التصرف الواقعي السائد في مجتمعنا ، وهو تصرف فطري سليم يحل هذه المشكلة حلا مؤقتا معقولا .

ان الشاعر الكبير يزداد سموا وعظمة في المواقف الصعبة ، وشاعرنا / نزار / الذي تقلب مدة طويلة على سرير من الريش الناعم والحرير الباذخ ، واستسلم بنهم لغرائز الجسد وشهواته ، آن له أن ينام على سرير من الابر والاشواك ، آن له أن يعاني جراح الروح وآلام النفس التي تفوق في حدتها كل الآلام ، وبالامس البعيد كان شاعرنا ولدا مفجوعا بفقدان والده ، وقد هزه هذا الحدث الجسيم من الاعماق ، ولكن هذا الجرح الاليم قد شفي بعد أن داوته يد الزمن التي تتكفل عادة بمداواة كل الجروح وحل كل المشاكل ، واليوم شاعرنا الاب يرزأ بمصاب هائل يقصم الظهر ويهد الكيان ، والجرح الذي اندمل منذ زمن بعيد ، عادت نفس اليد التي داوته لتفتحه من جديد أكثر عمقا وأشد قسوة شاعرنا الاب كان على موعد مع القدر الذي قذفه بصاعقة كاسحة ، دمرت بوحشية وعنف ركنا غاليا من أركان حياته ، انه اليوم أب يفقد ابنه بعد أن كان بالامس ولدا فقد أباه ، ان كبده التي كانت تمشي على الارض بين يديه تدوسها قدم الايام الحديدية وتسحقها بقوة حتى التلاشي والاضمحلال لقد عادت المأساة من جديد وبوجه جديد أشد مجا وسماجة وأكثر ايلاما ومضاضة

/ توفيق قباني / هذا هو اسم ولده ، وهو شاب وسيم يتابع تعليمه العالي في احدى الجامعات بمدينة القاهرة ، ثم يموت فجأة على أثر مرض عضال لم يمهله طويلا ، فماذا كان موقف / نزار / تجاه هذه الكارثة ، انه لا شك موقف كل أب يفقد ولده الشاب ، موقف مضرج بنجيع القلب ومغتسل بدمع العيون ، / نزار / نزار الاب يكبر ويتعملق ليصبح بحجم المصيبة الكبرى التي المت به ، ولنقرأ معا هذه السطور المدماة من كتاب الحزن الذي صور فيه لوعته وحزنه :

مكسرة كجفون ابيك هي الكلمات
ومقصوصة كجناح ابيك هي المفردات
فكيف يغني المغني ؟
وقد ملأ الدمع كل الدواة
وماذا سأكتب يا ابني ؟
وموتك ألغى جميع اللغات

هنا الالم عند شاعرنا يأخذ شكلا شعاعيا كنافورة تندفع من اعماق القلب ، لقد كان موت ولده الشاب طوفانا أغرق كل الآمال ، وحطم ما عقده عليه من أمنيات واعدة ، وتحولت الحياة في نظره الى دمعة كبيرة ، لانني

تسقط من عينيه برتابة محزنة دون توقف ، والحروف التي كان يدبج منها قصائد العشق والغرام ، تتحول الى مجموعة من الرماد البارد لا يسكنها الا الحيرة والوحشة والضياع :

لاي سماء نمد يدينا
ولا أحد في شوارع لندن يبكي علينا
يهاجمنا الموت من كل صوب
ويقطعنا مثل صفصافتين
فأذكر حين أراك عليا
وتذكر حين تراني الحسين

لقد هرب بابنه الفتى الى مدينة لندن ، عله يجد فيها الدواء والشفاء ، ولكن الموت كان بانتظارهما معا ، فافترس الابن حتى العدم وأبقى الاب على قيد الحياة ليموت في كل يوم الف ميتة ، لقد صرع الموت هذا الغصن الرطيب الذي اخضوضر لفترة قصيرة ، وما ان بشرت عقده بباقات الزهور حتى تحولت هذه الباقات الى اكاليل حزن تراق على ضريحه ، وتلتف حول عنق أبيه كالافاعي ، وتنفث في دمه سما زعافا ، وتنشر في أفق حياته قتاما أسود يعبق برائحة العفن والموت ويسد كل المنافذ حتى الاختناق .

أشيلك يا ولدي فوق ظهري
كمئذنة كسرت قطعتين
أواجه موتك وحدي
وأصرخ مثل المجانين وحدي
وكل الوجوه أمامي نحاس
وكل العيون أمامي حجر
فكيف أقاوم سيف الزمان ؟
وسيفي انكسر

شاعرنا مبلل حتى قمة رأسه بالدموع ، لا احد يحاول تجفيفها بمنديل المواساة او التعزية ، يواجه عاصفة الموت وحيدا ، ولا يرى في وجوه أصدقائه سوى نظرات الشماتة والتشفي ، انه يتحول الى جزيرة حزن ضمن بحر من الدم والدموع ، وخنجر المصيبة الذي أدمى قلبه يتغلغل في صدره اكثر فاكثر ، لان أحدا لا يواسيه ولا يخفف عنه بلواه ، لقد فقد كل أسلحته في معركة الحياة وصار أعزل بينما ذئاب الايام تهاجمه من كل صوب :

سأخبركم عن أميري الجميل

• • •

هل تعرفون زجاج الكنائس هل ؟
تعرفون دموع الثريات كيف تسيل ؟
وهل تعرفون نوافير روما ؟
وحزن المراكب قبل الرحيل ؟

• • •

هنا كتب الطب ما زال فيها بقية
أنفاسك الطيبات
وها هو ثوب الطبيب المعلق يحلم بالمجد
والامنيات
فيا نخلة العمر كيف أصدق انك ترحل ؟
مثل العصافير والاغنيات
وان شهادتك الجامعية يوما ستصبح
صك الوفاة

بالامس وقف شاعرنا من موت ابيه موقف المكذب لهذا الخبر المشؤوم ، واليوم يتكرر نفس الموقف ، فهو يرفض أن يصدق أن فلذة كبده ، قد ضاعت كسحابة دخان في سماء الموت ، لقد أرسله الى جامعة القاهرة ليتخرج طبيبا ، يأسو جراح الآخرين ، ولكن القدر يسخر منه ، ويرمي بولده لقمة سائغة في أشداق الموت ، التي كشرت عن أنيابها ، تقطر دما وحقدا ، وتزداد السخرية الصفراء مرارة عندما تتحول الشهادة الجامعة التي تنتظره عند التخرج من شهادة موشاة باطار ذهبي براق ، الى اعلان وفاة مجلل بالسواد والاسى :

أتوفيق !
ان جسور الزمالك ترقب كل صباح خطاك
وان الحمام الدمشقي يحمل تحت جناحيه
دفء هواك

فيا قرة العين كيف وجدت

الحياة هناك
وهل ستفكر بنا قليلا

وترجع في عطلة الصيف حتى نراك

أتوفيق
اني جبان أمام رثائك

فارحم اباك

شاعرنا يعيش مأساة الانتظار بكل أبعادها ، فهو ينتظر بصبر وصمود أوبة الغائب الكبير أبيه ، وانتظاره دون رصيد من الجدوى والفائدة، واليوم يودع مسافرا جديدا في رحلة أخرى مع الموت ، ثم يتهالك على مقعد من الامل في محطة انتظار جديدة لا يعلم احد مداه ، ونفس السراب المخادع الذي ملأ منه جداره بالامس ، يعود اليوم ليطارده من جديد في صحراء تموج ببحر من الرمال والريح والظمأ .

كل التقارير كذب

وكل كلام الاطباء كذب

وكل الاكاليل فوق ضريحك كذب

وكل المدامع والحشرجات

أحاول ان لا أصدق أن اميري

الخرافي (توفيق مات)

وان الجبين المسافر بين الكواكب مات

وأن الذي كان يقطف من شجر الشمس مات

. . .

فموتك يا ولدي نكتة
وقد يصبح الموت أقسى النكات ..

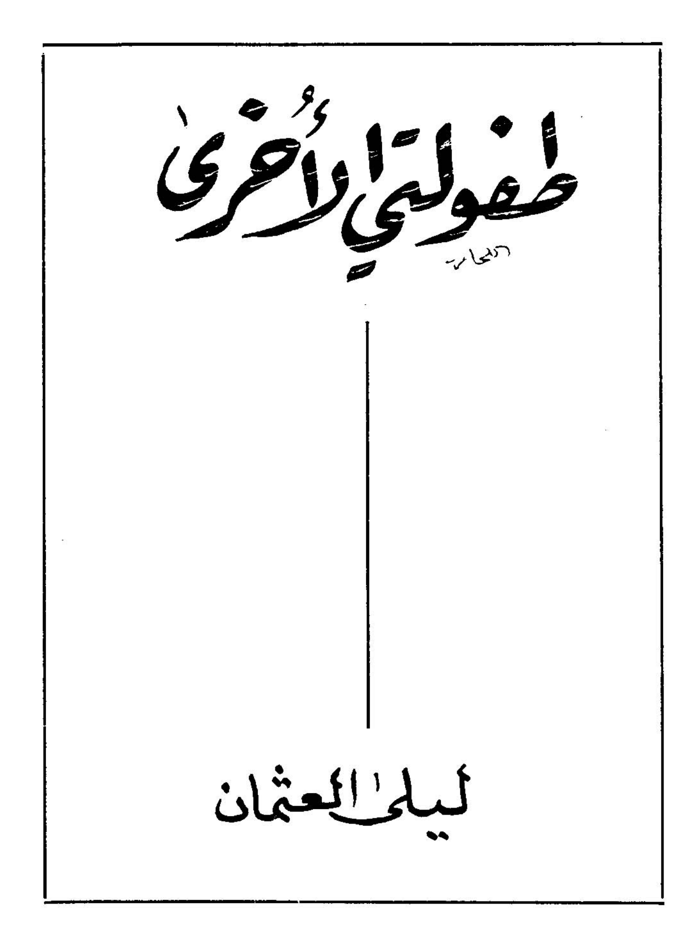
لهفي عليك ياشاعري كم صيفا انتظرت رجوع والدك وكم صيفا ستنتظر رجوع ولدك ؟ ان انتظارك سيطول ويطول كثيرا ولن تكون له نهاية على الاطلاق وسيتحول مع الايام الى رحى طاحون تطحن بين فكيها كل ورود السعادة والفرح .

واذا كانت امور اللذة نسبية ومتباينة ، وتختلف باختلاف المتلقي ، فان مقولة الالم تكاد تكون واحدةلدى كل الناس ، خاصة اذا كان الالم تجريديا ، لا يرتبط بالجسد مباشرة ، كالحزن والاحباط والفشل وتأنيب الضمير .. الخ ، وشاعرنا / نزار / كان في ساحاتاللذة الحسية المرتبطة بالجسد الانثوي الجميل فارسا مجليا له صولات وجولات ومعارك وضحايا لا تعد ولا تحصى كما أشرنا الى ذلك آنفا ، وكان كذلك انسانا ضعيفابدون حول ولا قوة امام الكوارث التي أحاقت به ، وخففت من غلوائه الى حد الهمود والسكون ، واترعت كلمة الالم عنده ، بأشد المعاني قسوة وهولا .

وهنا لا بد ان نخرج محايدين للذة والالم كما وردا في قاموس شاعرنا / نزار / من خلال استقرائنا السريع لبعض قصائده في هذين المجالين ، وهو الهدف الذي سعينا لتحقيقه منذ البداية ، واعتقد ان هذه المهمة صارت من السهولة بمكان بعد التحليل والدراسة والاضواء التي سلطت على طروحات شاعرنا ومضامينه الفكرية والفلسفية والادبية والفنية والانسانية، ويمكن تلخيص هذين التعريفين على الشكل التالي :

في مجال اللذة فرصة الاختيار متاحة للجميع ، وشاعرنا / نزار / اختار المرأة كمعنى وحيد لكلمة اللذة الحسية المرتبطة بحاجات الجسد وغرائزه الجنسية، أما الالم فهو قدر مفروض على كل انسان ولا فرصة فيه للخيار على الاطلاق ، وله وجوه عديدة تتفاوت في شدتها وعنفها ، وقد تعامل شاعرنا مع وجه واحد منها وهو كما لا حظنا الموت والفناء ، وكان في حمأة الالم لا يتفوه الا بمعنى واحد هو التمزق والتوجع والصراخ والدموع ، ويعود دائما ليشيء الحياة عند هاوية التلاشي والاندثار ، ويمد فوقها جسر التجاوز والتخطي ، وهو خلال رحلته الطويلة مع الالم لم يترك لليأس مجالا لان تحيل ولو جزءا يسيرا من نفسه ، وظلت كلمة الالم عنده تعني الفعل لا الانفعال ، والصبر لا الانهيار ، والصمود لا التفتت والضياع .

حمص ، نزيه ضاحي



استطعت اليوم وللمرة الاولى أن أتحدى أمي ، أو على الاصح ظلم أمي ، فأضربت عن الطعام .

وحين أضرب عن الطعام فان هذا يعتبر معجزة هائلة حتى بالنسبة لي ، فالكل يعرفني كما أعرف نفسي .. أعشق الطعام ، ولا أفكر بأن أكتفي منه .. حتى حين نصحني طبيبي بذلك مشيرا الى بطني :

ـ مازلت في سن الشباب وهذا الكرش يتصدر مقدمتك .. فكيف اذن لو تزوجت وأنجبت ؟ يومها نظر الي عادل .. خطيبي وغمزه بقوله :

ـ هل أنت راض عن هذا المنظر الذي أراه يؤثر على جمالها ؟

ابتسم عادل . ونظر الي كأنه يريد أن يوصل الرسالة الى مسامعي .. ونظرته كانت تؤنبني ..

ـ أهكذا .. تريدين أن يهزأ بك هذا الطبيب ؟

رغم هذا .. استمر عشقي للطعام .. فأنا أكره الجوع ..

ولكن حالي اليوم تغير : لقد حدثت مصيبة اليوم فأنا مضربة عن الطعام .. وهل يعقل هذا ؟ من يصدق ؟

أمي كالمجنونة تروح وتجيء ، تسترحم وتتوسل !! دخلت لتصرخ في وجهي :

ـ قومي .. وشاهدي بنفسك .. فتحية تلتهم ما لذ وطاب من الاكل ..

بلا مبالاة .. رددت عليها ، لاحرق أعصابها أكثر :

ـ لا يهمني .. ان أكلت .. أو لم تأكل ..

كنت أعلم أنني قاسية على أمي لابعد حد .. ولكني حين أقارن قسوتي عليها .. وقسوتها على فتحية البائسة .. كنت أصمت حتى أحصل على كل ما أريد ما دام مهما عند أمي ألا أجوع .. فيجب أن يكون الامر بالنسبة لها كذلك من أجل فتحية ..

ضربت أمي كفا بكف .. وزفرت .. أحسست بزفرتها تمزقني .. تماما كما يمزق الجوع أحشائي .. لكنني صمدت ..

ـ سناء .. أعدك أنني لن أعاقب فتحية بعد اليوم؟

ونظرت لها بجد واضح ، ولم أتمالك نفسي من أن أصرخ بوجهها :

ـ قلت هذا الكلام الف مرة ..

ـ ولكنها تزعجني .. تضايقني .. الا ترين أفعالها؟ ألا تسمعين كل يوم أصوات الصحون والاكواب وهي تكسرها ..

ـ انها لا تقصد ..

قلتها وأنا مقتنعة بأن فتحية أبدا لا تقصد .. ولكني لم أنس شيئا قالته لي فتحية ذات مرة

ـ سأكسر الصحون لها .. سأنتقم من سيدتي ..
ورغم أن هذه الكلمة قد طافت بذهني .. الا أنني كنت مقتنعة بأنها لم تفعل هذا عامدة .. فكلنا معرض لان يكسر صحنا وثلاثة فهل نحن نتعمد ؟

استمرت محاولـة أمي .. واستمـر رفضي .. واستمر الجوع ينهش جوفي .. ونظرت الى بطني الذي برز نتيجة السمنة التي تضايق طبيبي .. ولكنها لا تثير في نفسي أي ضيق ..

ـ هل هذا البروز مثـل سنام الجمل ؟ لـم لا .. اذن لا بـد أن هـذا الشحم المتراكم سيغذيني .. على الاقل طيلة فترة الاضراب .. فترة الاضراب ..؟؟

تساءلت بدهشة .. وهل حددت أنا فترة الاضراب وكم ستطول ؟

ضحكت .. حتى كـدت أنسى أنني ثـائـرة .. ومعتصمة عن الاكل ، وعن الضحك وحتى عن الكلام.. كنت متأكدة أنني سأحصل على الطعام .. وبأي شكل وفي نفس الوقت .. سأكون أمام الجميع .. تلك الفتاة القوية الصامدة .

بعد أن هدأ البيت قليـلا .. قررت أن أتسلل الى المطبخ .. يجب أن أبحث عن شيء آكله .. كما تبحث القطط .. عن طعامها تحت الموائد .. لكني الآن قطـة جائعة .. ما أقبح الجوع .. لقد تمنيت في هذه اللحظة لو أنني أستطيع التعرف على جميع الفقراء الجائعين.. الاطفال .. والنساء .. وحتى الرجـال القادرين على الاحتمال لاطعمهم وأشبعهم .. وأحس بالمتعة .. بالراحة كم هو قبيح هذا الجوع .. وفتحت الباب بهـدوء .. واذا بوجهه فتحية يفاجئني وبه حزن لم أشاهده قط.. حتى حينما كانت تبكي اثر عقـاب شديد مـن أمي .. وجههـا البريء يذكرني بطفولتي ، فأحس كأنني أشفق على نفسي .. وأتذكر .. أتذكر .. حين ترك أبي أمي وأخذني وعشت مع زوجته الثانية .. كنت تماما مثـل فتحية .. أعاقب .. وأضرب .. وأحرم من الطعام .. وأظل طوال اليوم أجتر .. وأجتر بعلكة قد تميع بـين أسناني .. فأتمسك بها لاحارب الجـوع .. لن أنسى تلك الطفولة .. فقد حرمتني أشياء كثيرة .. وحين مات أبي أحسست بالراحة .. ليس لانني أكرهه .. وليس لانه كان سلبيا في كثير من المواقف .. حين كان يتخلى عني ويحاول افهامي دائما بأنني المخطئة .. بينما أكون واثقة من أنه يعلم عكس هـذا .. انما يجب عليـه أن يرضي زوجته وبـأي شكل .. حتى لو جـاء هذا على حساب حرماني .. من الرحمة .. ومن حنانه ..

مات أبي .. وكانت أمي تنتظر هذه اللحظة بفـارغ الصبر فقد قاست الويلات بسبب فراقها لي ، وحرمت على نفسها المتع والحياة المترفـة الهادئـة .. تنتظرني وتأمل أن أعود لها يوما ما .. وعدت .. فلم يكن هناك ما يربطنـي ببيت أبي .. لقـد كـانت تلـك اللحظـة الخلاص النسبة لي .. كبرت .. وكبرت .. وهـاهي طفولتي تعود .. بوجه فتحية .. دفعت الباب ودخلت وهي تردد بخوف

بسرعة .. بسرعة .. أغلقي الباب ..
كانت كالعصفور ترتعش وكانت تحمل لي بيديهـا ورقة جديدة لفت بها قطعة الخبز واللحم والخيار الذي أحبه ..مع حبات من الزيتون . صرخت بها : لا أريـد اذهبي وقولي لامي .. لا أريد .. هيـا ..

ـ وبكت : والله ، والله انني أنا التي جئت بالاكل.. وأمك لا تدري ، ولو علمت لقصفت عمري ، وأنا أريـد أن أعيش .. من أجلك ياسناء ..

واقتربت تتمسح بي .. كما تتمسح القطط الاليفة وأرجوك .. خذي ، كلي .. انه طعامي .. وأنا لن آكل حتى تأكلي ..

ركعت على ركبتي .. وأمسكت بكتفيها الصغيرتين وظللت أسبح في وجههـا أقرأ في أعمـاق عينيها حنانـا ما قرأت مثله من قبل .. وأقرأ في شفتيها دعاء صادقا يختلف تماما عن دعاء أمي .. كم أحب هذه الصغيرة .. انها نفسي .. انها طفولتي .

حسنا يا فتحيـة .. سآكل ولكن ايـاك .. ايـاك أن تخبري أمي ..

وفتحت يديها لتعانقني .. وفي لحظة نسيت أنها تحمل الخبز واللحم والخيار .. والزيتون فتناثرت الاشياء أمامي ..

واندفعنا نحن الاثنتين .. لنجمع حبات الزيتون ومن ثم لنأكل معا .. كنا نلتهم الطعام التهاما .. ماأقسى الجوع !! ما أقسى الجوع ..!!

ـ قولي يافتحية .. هل تحسين بالجوع مثلما أحس

ـ أجل .. انه يمزق أحشائي .. ويشل حركتي عن العمل .. لذا تقع الصحون ثانية من يدي .. ولا أستطيع مسح الارض كما تريد سيدتي ..

ـ حسنا يافتحية .. سأظل مصممة على الدفاع عنك .. أمي بلا شك طيبة .. لكنها عصبية المزاج بشكل حاد .

كنت أشعر في كثير من الاحيان .. أنها تعاقب فتحية .. ليس لذات الذنب الذي اقترفته بل لمجرد أنها مرهقة نفسيا .. أو تعاني من أزمة خاصة نتيجة مشكلة تحيرها .. أو لانها تغتاظ من تصرف من تصرفاتي فلا تستطيع أن تؤنبني .. أو حتى أن تصفعني ان احتاج الامر .. فتظل تغلي .. تغلي .. حتى تعطيها فتحية الشرارة الاولى .. حين تكسر صحنا .. أو .. حين تمهل الرد على جرس الباب .. فتندفع اليها كالصاروخ وتفرغ كل محتويات داخلها من الغضب والتعب .. في تلك المسكينة ..

دخلت عليها قبل يومين .. وكانت غاضبة من فتحية وحين سألتها عن سبب غضبها هذه المرة .. شكت وهي على وشك البكاء :

ـ تصوري أنني طلبت منها أن تلمع حذائي .. كنت أنوي زيارة جارتي .. ولكنها أهملت الموضوع كأنها لا تسمع .. هممت بالخروج .. وجدتها قد بدأت للتو به . وقد صبغته باللون البني .. بينما هو .. أسود نظرت لامي طويلا وقلت :

ـ جارتنا هذه التي نويت أن تزوريها اليوم .. رأيتها بأم عيني تلمع حذاء زوجها قبل يومين حين أرسلتني لاستعير لك منها صينية الفرن ، فاذا كانت جارتك .. تلمع حذاء زوجها فكيف تكرهين أنت أن تقومي بهذا العمل بنفسك ولحذائك ..!!

واندهشت أمي ، واكلت دهشتها نصف وجهها وهتفت :

أهكذا ياسناء .. حتى حذائي يجب أن ألمعه بنفسي فراشي أخذت على عاتقي مسؤولية ترتيبه .. غرفتي تحملت تنظيفها بنفسي كي لا تنزعجي من صراخي معها حين تعبث بأدواتي .. ثم ماذا يبقى لها اذن ؟؟ أنا التي أطبخ .. وأغسل .. وأكوي الملابس .. وأفعل كل مامن شأنه أن يخفف عنها تلك المشاق .. أوبعد هذا .. تريدينني أن أنظف حذائي ..؟

شعرت بالندم .. لقد قسوت على أمي .. ولكنني كنت أدافع عن فتحية .. عن نفسي عن طفولتي .. دون أن أقارن بينها وبين أمي .. هذه أمي .. التي ضحت بأشياء كثيرة من أجلي ، أقسو عليها الآن .. من أجل فتحية .. التي هي أنا .. هي أنا ..

أف .. ما هذه الانانية ؟ فتحية ، تأخذني من أمي تأخذني من نفسي .. وحتى من عادل ..

ألقيت بنفسي على صدر أمي .. وبكيت ، بكيت وعاهدتها عهدا بألا أسمح لفتحية .. بأن تنظف حذاءها ومن بين دموعي كنت أردد : أنا سأنظف حذاءك يا أمي .. وحتى الارض التي عليها تمشين .. سامحي قسوتي..

وقررت ألا أرحم طفولتي على حساب أمي .. قررت ألا أتدخل بينها وبين فتحية .. لماذا أتصور أن أمي .. هي زوجة أبي .. ان أمي لا يمكن أن تكره فتحية لانها ليست ابنة امرأة أخرى كان زوجها قد عرفها من قبل .. وليست كذلك تلك العقدة التي تشكل شيئا بالنسبة لها كما كنت أنا أشكل تلك العقدة بالنسبة لزوجة أبي التي لم تستطع أن تثبت كفاءتها كأنثى .. تلد .. أو تبيض .. لا أدري ..

لقد اتخذت القرار بعدم التدخل منذ يومين .. منذ عاهدت أمي على أن أمسح حذاءها وأمسح الارض التي

تمشي عليها .. ولكن .. ها أنذا اليوم أعدل عن قراري فأصفع أمي بقرار خطير يقتلها .. ويقلق بالها .. انني اليوم .. مضربة عن الطعام .. وهذه مصيبة .. انها تعرفني وتعرف شراهتي التي لا حد لها .. وتعلم بأنني لا أستطيع أن أجوع نصف نهار كامل ؟؟ ويوم الجمعة بالذات وهو اليوم الوحيد الذي تبذل فيه أمي جهدها لعمل أصناف لذيذة أحبها .

لا أدري كيف التهمت الطعام أنا وفتحية .. ولكن حين خرجت .. أحسست بحب كبير لها .. وشكرتها بيني وبين نفسي .. مصممة على أن أقف معها حتى النهاية .. ويجب أن تعاملها أمي .. تماما كما تعاملني وألا تحرمها من الطعام أبدا ..

بقيت أفكر بعد هذا .. كيف سيتسنى لفتحيةأن تحضر لي طعام العشاء .. الآن . وقد وجدت فرصتها وأمي على السطح تنشر الغسيل .. ثم في المساء وكيف حين يأتي عادل وأمه .. ماذا سيقولان .. وتنبهت .. هل من المعقول الا تكون أمي قد اقتطعت من وقت نشر الغسيل لحظة كي تنزل عند جارتنا طويلة اللسان .. كي تتصل بعادل وتخبره بفعلتي هذه ..؟

كرهت أن تكون أمي قد تصرفت هكذا .. لان طويلة اللسان جارتنا سوف تنشره في كل بيت في العمارة التي تسكنها كما تنشر أمي الغسيل على الحبال .. وقررت أن أواجه أمي بالسؤال ..

تلعثمت في باديء الامر .. لكنها تلطفا منها .. وتقربا لي ، اعترفت بأنها اتصلت به .. وكنت متلهفة لمعرفة رايه .. فجاءني مثيرا مشجعا لي .. كي أتحدى أمي المسكينة قال : لا بأس .. انه ريجيم تستفيد منه ؟؟..

واستدارت أمي لتخرج من غرفتي .. نظرت اليها تمنيت لو واتتني الشجاعة التامة .. فأركض اليها .. وأرتمي على صدرها كما فعلت قبل يومين وأبكي .. أبكي لارتاح .. وأعترف لها بأني قد أكلت .. حتىأزيلحزنها من أجلي .. وخوفها علي .. لكنني تسمرت .. جبانة كنت .. وغير قادرة ، لست أدري ، لم تغلق أمي الباب من خلفها .. كأنها تريد أن تعطيني فرصة للتحرك ..

كأنها تدرك شعوري فيهذه اللحظة .. بلكأنها تتمنى هذه اللحظة ولكنني ما استطعت .. ما استطعت أن أحقق رغبتها .. ورغبتي في نفس الوقت .. مضت ساعة تنازعتني خلالها أفكار عديدة .. وأرهقني تفكير عنيف بأمر فتحية .. هذه الخادمة الصغيرة .. بوجهها البريء .. الذي يمثل طفولتي .. انها حاجز رهيب يقف بيني وبين أمي .. انها مصدر كاذب يحول دون تصديق عاطفة أمي نحوها .. انها تجعلني أتصور أن أمي قاسية .. بلا رحمة .. بلا قلب .. بينما أمي ليست هكذا أبدا .. انها كتلة من المشاعر الطيبة .. انها الانسان التي قاست العذاب .. حين كان أبي يعشق المرأة الاخرى .. وهي تعلم .. حتى جاء ذلك اليوم .. ليحرمها من بيتها .. ومني كيف لهذا القلب الذي تمزق مرتين وتعذب .. كيف له .. أن يعذب ويقسو .. على طفلة بلهاء . أجبرتها الظروف أن تبقى معنا تعمل على مساعدة أمي دون الحاجة لمساعدتها انما ما دامت أمها تريد ذلك .. فلا بأس .. هي الاخرى تعيش مع رجل آخر غير والد فتحية .. وتخشى عليها من هذا الزوج الشرس ، وأمي حين تبرعت أن ترضى بفتحية .. كيف لم أذكر لها ذلك الجميل الرائع .. أمي أم زوج أمها .. من الارحم ؟؟ ثم .. لماذا أحرم على أمي تأديب هذه الصغيرة ؟؟ حتى اذا كانت لا تقصد .. فلا بد أن تنبه أن الحرص واجب .. وان حرصت فانها .. لن تقع في الخطأ ..

وفتحية .. هل هي سعيدة .. ما شأني بها ؟؟ ولماذا كل هذا الاهتمام بها ؟؟ هذا الاهتمام الذي يقيم سدا .. بيني وبين أمي حين أسارع للدفاع عنها .. ثم أنا سأترك البيت .. سأتركه بعد شهرين لاذهب الى بيتي .. فمن سيدافع عنها ؟؟ من سيهتم بها ؟؟ ولماذا أعتبرها مظلومة بهذا الشكل الذي أتصوره ؟؟

فتحية هذه يجب أن أبحث عن حل سريع لمشكلتها مع أمي .. ولكن عدت أتذ كر .. ان فتحية هي أنا .. أنا نفسي .. طفولتي .. هي تحبني .. تحبني .. بجنون وتعشق كل ما أقوم به من حركة ورسم ، وحتى من مداعبة لاصابعي حين أقصد أنأسمع صوتها متتابعا

فتحية .. تحبني وتكره حتى اللحظة التي تقرر أمهـا فيها أن تأخذها يوما عندها .. تكره تلك اللحظة .. التي تجمعها بأمها .. فكيف .. أتخلى أنا عنها ؟؟

ظللت بصراعي .. ظللت بتعاستي أعيش ساعة .. بعد ساعة .. وتهت .. لا أدري كيف أقـرر .. وعلى ماذا أستقر ولا أي الاطراف يجب أن أناصر .. وأرضي فجـأة !!!

تفتح أمي الباب .. تدخـل .. تقترب من سريري ببطء كأنها تسحب قدميها .. ورأيت وجهها باهتا .. وعيونها متورمة .. محمرة .. عرفت للتو .. أنها كانت تبكي .. ولفترة طويلة ..

اذن ساعات اقضيها أتتقاذفني الافكار .. والصور وهي تقضي الوقت ممطرة العينين .. كبيرة القلب ..

اعتدلت في فراشي .. وتوقعت شيئا هائلا من أمي انها تأتي الى غرفتي ذليلة .. كسيرة النفس .. ماأقسى الصور حـين تختلف وتتقلب .. من التي كان يجب أن تدخل غرفة الاخرى بهذا الذل ، وهذا الانكسار .. أنـا أم .. أمي ؟؟

ــ سناء .. يؤلمني جدا أنك لم تأكلي بعد .. ولكني جئت اليك من أجل هذا ..

بدأت أحس الحسرة .. بـدأت أحس بأن غيومـا وسحابات من الحزن تخترق جدار عيوني .. لتتجمع دموعا .. تحجب رؤية وجه أمي البالغ الحزن ..
لعل هذا .. يخفف من ألمي .. لعله يطهر نفسي ..

ــ ماذا يا أمي ؟؟

سألتها .. والكلمات تتكسر على شفتي ..

ــ لقد قررت أن أرسل فتحية عند أمها .
وشهقت ..

واندفعت بدموعي مرة واحدة .. أجهشت ببكـاء عنيف دون أن أستطيع السيطرة على نفسي لاقول لامي شيئا واحدا فقط .. شيئا واحدا ..

ــ أمي .. أنا لست جائعة .. لقد أكلت .. وفتحية هي التي أعطتني طعامها .. فلمـاذا لمـاذا ؟ .. ولكني استمررت في نحيبي الذي لا أدري كيف كان وقعه على سمع أمي .. وحين هدأت .. رفعت وجهي الخجـل اليهـا .. فاذا بدموعها صامتـة .. تسير في خطين .. متصلين .. دلالة على ان النهر لم ينقطـع لحظـة .. وارتميت عليها .. بجنون .. وخصتني بحنان بالغ .. تشد علي كأنها تخاف أن ألحق بفتحية .. تلك التـي حرمتني من خمسة شهور متواصلة .. منذ قررت أمها أن تتزوج رجلا غير والدها ..

ما أكبر الفرق بـين أمي .. وأم فتحية .. هـذه صبرت لاجلي .. وتلك ما استطاعت الصبر ، واعترفت لأمي :

ــ لقد أكلت .. لست جائعـة ..

وانفرجت أساريرها .. ومن بين دموعها قالت :
ــ كنت متأكدة .. انك ستتسللين الى المطبـخ .. أعرفك شرهة كالشرنقة .. وهتفت :

ــ لم أتسلل يا أمي .. فتحية أعطتني طعامها لآكله
وارتخت يد أمي التي كانت قبل لحظة تشـد علي وتعصرني كأنها تحاول أن تدخلني الى أعماقها .. كـي أبقى لها .. وليس لاحد سواها .. كأنها تريد أن تحميني من الهرب من اللحاق بفتحيـة التي حرمتها مني طيلـة تلك الشهور ..

وسمعت صوتها كأنه يأتيني من البعيد .. البعيد ..
ــ فتحية .. فتحية .. فعلت هذا ؟؟

لم يطل لقائي بأمي .. ولكنه .. كان لقاء غســل الكثير .. الكثير من الشوق الي ..

في تلك الليلة .. نقلت أمي فراش فتحية .. مـن غرفة المخزن القريبة من المطبخ ..

الى غرفتي البسيطة .. الهادئة ..

ليلى العثمان

الدكتور أسعد علي شاعراً

مصطفى عكرمة

الدكتور أسعد علي ـ كما هو معروف لدى كل من يهتم بقضايا الفكر والادب ـ علم من ابرز اعلام الفكر ، والفلسفة ، والادب .

وليست أبحاثه القيمة خافية على أحد بعد أن تبوأت كتبه وابحاثه مكانها اللائق في صدر المكتبة العربية حيث كان ينتظرها هذا المكان من زمن بعيد لما لها من مكانة رفيعة ، وقيمة علمية .. يميزها فكر ثاقب ، ونظرة عميقة موضوعية شاملة لكل قضية يطرحها في كتاباته .. ولا جدال بأن هذا الباحث المتعمق البصير اصبح رائدا من رواد الادب ، أو البحث الادبي ـ اذا شئت ـ .

والذي اعطى بحوثه هذا التميز موهبته المبكرة النادرة ، وروحانيته السمحة المشرقة التي لعبت دورا بارزا في انمائها بل واغنائها .. نشأته الريفية الصافية ، حتى اذا جاء التحصيل العلمي العالي مرورا بتلك الخبرة الفنية التي اكتسبها في حقل المحاماة ـ وكلنا يعلم ما للمحاماة من فضل في اغناء محصلة الانسان في المجال الاجتماعي ـ بعد هذا .. كان من حقه الطبيعي أن يتبوأ هذه المكانة الرفيعة في عالم الفكر ، والادب ، والفلسفة ...

وماذا عن الشعر !!..

منذ أيام قليلة نعمت « بلقاء مضيء أزهر حبا » كما جاء في اهدائه اللطيف الذي سطرته يمناه وهو يقدم لي كتابه القيم « فن الحياة .. فن الكتابة » .

وللحقيقة أقول : انني لم اكن قد قرأت له شعرا ، مع أنني كنت حريصا على ذلك .. لكنني علمت ان ثمن النسخة الواحدة من ديوانه الصغير مئة ليرة لبنانية ، مئة ليرة لبنانية ثمن النسخة الواحدة من ديوان صغير !!

أجل .. هكذا قال لي تلميذه في الدراسات العليا الصديق الاستاذ عبد الله الطنطاوي ..

لماذا ؟!

هل هناك نسخة ديوان طبع حديثا لشاعر حديث تساوي مئة ليرة لبنانية ؟! قلت في نفسي : ان بامكاني أن أملأ رفا من رفوف المكتبة بدواوين لشعراء قدماء ومحدثين .. وربما أكثر من رف بهذا المبلغ ..

وبقي الموضوع ماثلا في ذهني .. لا بد أن سرا وراء هذا !!

كانت فرحتي غامرة اثناء ذلك اللقاء الذي حصلت به على كنزين ثمينين ..

فن الحياة .. فن الكتابة
وفن المنتجب العاني وعرفانه .
باهداء لا أرق ، ولا ألطف أو أحب ..

ولست هنا بصدد الكتابة أو الحديث عن الكتابين أو احدهما الآن .. فالموضوع يحتاج الى كثير من الدقة ، اذ ليس الكتابان للتسلية ، ولا لمتعة القراءة السريعة ، انهما ـ بما اشتملا عليه ـ أكبر واعمق وأبعد

يهمني الآن أن أتوقف مع القارىء قليلا عند تلك الشذرات التي وشى بها كتابه القيم « فن الحياة فن الكتابة » الذي صدر حديثا عن الاتحاد الوطني لطلبة سورية ـ اللجنة الادارية ـ كلية الآداب ، وطبع في مطابع مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر والتوزيع ، واعني تلك المقطوعات الجميلة من شعره ، ولست ادري كيف سيفسر القارىء هذه الكلمة التي احسستها نحو مقطوعاته واعني « الجميلة » فلقد عشتها بكل ابعادها ـ وعفا الله عن أولئك النقاد العصريين الذين أضاعوا ايحاء الكلمات الجميلة في لغتنا لكثرة ما يوردون من مترادفات ، واحدة أو أقل تكفي أو تزيد ـ لكن هل ترى هذه الكلمة كافية للتعبير عن تلك المقطوعات ؟!.

لا أظن ..
ان ما فيها لهو فوق الجمال .. وأروع وأحب فماذا فيها ؟..

لم يكن قصدي من هذه المقدمة املاء سطور .. انما أردتها مدخلا بسيطا نتلمس من خلالها ما في هذه « الشذرات » .

الشاعر موهوب .. وبيئته الاولى هي الشعر .. وقد تركت البيئة في شعره ـ كما تركت الموهبة الاصيلة بصماتها ظاهرة على هذه الشذرات ..

كيف ؟!..

قبل الاجابة ، لا بد أن نتذكر أن أسعد علي هذا قد حصل على الدكتوراه في الادب العربي ، كما حصل على الدكتوراه في الفلسفة . فنحن ، اذن ، أمام شاعر موهوب مثقف ودارس متعمق للادب والفلسفة ، وأمام متصوف كبير نتلمس روحانيته في كل حركة جفن وطرفة عين ..

ان الفلسفة تفسد الشعر ..
هكذا قال الاقدمون ..
والشعر والفلسفة لا يلتقيان ..

واذا التقيا .. فلا بد أن يكون اللقاء على حساب أحدهما .. فاما ان تطغى الفلسفة على الشعر فيصبح الشعر عندها باردا في وقعه ، غريبا في تركيبه ، ركيكا مملا ، وان طغى الشعر على الفلسفة تمدد المعنى ، وفقدت الفكرة هيبتها وجلالها .. واعتقد ان فيما تركه من سمي شاعر الفلاسفة ، وفيلسوف الشعراء واعني أبا العلاء المعري اكثر من دليل ..

فالشعر عاطفة وخيال .. والفلسفة ابعد ما تكون عن هذا ..

هذه هي النظرة السائدة للشعر السلفي الذي يطيب لشباب اليوم ان يقال له « تقليدي » .

وأما ما يسمونه « حديثا » فان معظمه لم يستو بعد .. انه ما زال يتلمس طريقه ، واغلب الظن انه يحتاج الى وقت قد لا يكون قصيرا ـ كما يظنون ـ حتى يصل الى مرحلة الاقناع والتسليم ..

فأين يقع شعر الدكتور أسعد علي الاديب الفيلسوف من الشعر والفلسفة من جهة ، وبين التقليد والحداثة من جهة ثانية ؟!.

هذا ما أريد ان أصل اليه مع القارىء من خلال تلك « الشذرات » التي وشت كتابه الجديد « فن الحياة فن الكتابة » .

يدرس الدكتور أسعد علي في فصل من كتابه هذا « كيف يعلم الالهام الشعوب » فيستعرض نماذج من شعره هو من غير ان يوضح في اسطر البحث أن الشعر له .. انما يكتفي بالاشارة في مراجع البحث الى ان الابيات من ديوانه كذا وقصيدة كذا .. ولولا انه ذكر في مكان آخر سنة كتابة هذا الديوان أو ذاك لما عرف القارىء ان هذه المقطوعات التي ساقها الباحث هي له ..

لكن !! هل للباحث أن يستشهد بشعره ؟!
ان ذلك يكاد أن لا يكون مألوفا ..

لكن في اعتقادي أن اسعد علي لو لم يستشهد بشعره في هذا الفصل والفصول التي تليه لظلم نفسه ، وظلم غيره ..

تقول لي : كيف ؟!

واليك الجواب ..

لو استشهد بشعر غيره لظلم نفسه .. فلانه كان ان يبحث كثيرا عن البديل الذي قد لا يفوته .. فهو واسع الاطلاع بعيد المعرفة والحمد لله ، لكنه ـ وفي هذا اجابة على النصف الثاني من السؤال ـ لن يجده بمثل هذه الكثافة ، وفي مثل هذا الوضوح ، وبذلك لو فعل لكان ظلم غيره بعد نفسه ..

ثم انه كان دقيقا الى ابعد ما تكون الدقة وهو يحلل ويدرس تلك «الشذرات» كما كان موضوعيا ، وكان منصفا لولا انه ظلم بعض تلك الشذرات فلم يعطها حقها .. ربما لان طبيعة البحث تقتضي منه الاشارة لا الايضاح ، وهذا شفيع ليس من حق منصف ان يرد شفاعته ..

لقد ذكرت قبل قليل : ان دليلا واضحا يمكن القارىء أن يجده فيما تركه لنا من شعر فلسفي شاعر المعرة .. على ان الشعر والفلسفة من الصعوبة بمكان ان يلتقيا ..

فكيف التقيا هنا ؟!

يمكن القول هنا : ان الخبرة الاجتماعية الفنية

التي اكتسبها شاعرنا الدكتور اسعد علي في مهنة المحاماة كان لها بعض الفضل في التقاء الفلسفة بالشعر والتزاوج بينهما تزاوجا فنيا رائعا لا أحب ، ولا أرق ، هذا بالاضافة الى روحانيته المتميزة التي كان لها فضل آخر على اظهار ذلك التوازن والانسجام الغريب العجيب بين الفلسفة والشعر ..

ولنسترح الآن عند هذه الابيات التي تؤكد صدق ما ذهبت اليه ..

همس الاله بخاطري فزهت جميع مشاعري
بعث الالوهة نشوة روت رياض خواطري
أحيت موات مزارعي ورفاة عهدي الغابر
وشردت في سفن النعيم الى وجود آخر

واذا قرأنا هذه الابيات قراءة شعرية .. ووقفنا عند مفرداتها لرأينا أن فيها الكثير من الشعر . . أو الكلمات الشاعرة ــ اذا شئت همس ــ خاطر ــ زهو نشوة ــ رياض ــأحيت ــشردت سفن النعيم وجود اخر

وأظن اننا متفقون على ما في هذه الكلمات مفردة من جمال وشعر .. انها ليست كلمات فيلسوف ..

أما عن الفلسفة .. فما رأيك قارئي أن نقف عند البيت الاول منها .

همس الاله بخاطري فزهت جميع مشاعري

لو كان النص شعريا فحسب لكان لنا أن نتوقع من الشاعر وصفا أوسع نحس الحاجة اليه بعد تلك الهمسة الشاعرية الساحرة ..

لكن ليس المقصود هنا كتابة الشعر الهائم الحالم .

ولست أريد أن أقف هنا عند المعنى الديني لهذه الهمسة كما يتصوره بعض التقليديين في فهم الدين ممن يستريبون هذا المعنى ..

حسبنا أن نقول : ان في القرآن الكريم ما يشفع لها .. والقرآن بين أيدينا جميعا ..

أقول : ان المقصود هنا ليس كتابة الشعر الهائم الحالم ، فمهمة الشاعر الفيلسوف هنا بالذات غير ما نتوقع من شاعر حالم .. لذلك فقد قال لنا ان جميع مشاعره قد زهت .. « كن .. فكان »

وللقارىء ان يتبين هنا بنفسه مدى الترابط الدقيق الانيق بين الشطرتين . فلا فاصل ، ولا مقدمات .. ولا حشو ، ولا استرسال ..

انه الحضور .. وانه التثقيف ..

يقول الدكتور اسعد علي عن هذه الصورة(1)

« هذه الصورة من آثار الالهام .. عبر عنها بصورة بسيطة عفوية » وليس لي ما أضيفه حول ما قاله الدكتور أسعد .. اللهم الا اذا أذن لي أن أقول : ان هذه البساطة والعفوية لم تجيء هكذا ..

انه الحضور .. الحضور الذي كلفه الكثير ...

ثم ما رأي قارئي في هذا الشرود على سفن النعيم الى وجود آخر ... في البيت الاخير !!

انني أحس ان الدكتور أسعد علي في هذين البيتين .. ولست أظلم نفسي كثيرا لو قلت :

لو قرأت هذين البيتين قبل أن ألقاه .. لما تغيرت صورة اللقاء .. أي وايم الحق ..

واعتقد أيضا أن ما تركه هذا النص ، وهذا الانتقال بسفن النعيم أو الشرود بالاصح الى « وجود آخر » .. ليس لنا ان نتوقعه من شاعر حالم ..

وهنا يظهر دور الفلسفة ، وقبلا ظهر لنا دور الشعر

ولنقف الآن عند هذه « الكلمات » من ديوان الماء .

« أرأيت الشمس تتألق في قطرة ندى على حاجب برعم ورد قبيل الصباح ... كذلك تشرق الروح في حجمه الصغير »(2)

والهاء في حجمه هنا عائدة للرسول العربي الكريم محمد صلى عليه وسلم الذي كان أسعد علي أشد ميلا اليه من كل الناس في اهدائه كتابه الضخم « فن المنتجب العاني وعرفانه »(3)

ولنعد الآن الى النص :

« أرأيت الشمس تتألق في قطرة ندى على حاجب برعم ورد قبيل الصباح ... كذلك تشرق الروح في حجمه الصغير »

هل هذا شعر ؟!

أم فلسفة ؟!

ألست ترى معي أنه فوق الشعر ، وفوق الفلسفة؟!

هل قرأت في مئات المجلدات التي تبحث هذا الموضوع مثل هذا المعنى المتكامل في شاعريته ، وفلسفته وروحانيته صدق تعبير ، ودقة تصوير ، وعمق تأثير ؟!!

لي قصيدة تنوف عن السبعين بيتا في هذا الرسول العربي الكريم ، قلت للدكتور أسعد علي أثناء (لقائنا المضيء) انني أعتز بها ..

وفي الواقع قد عزز اعتزازي بها عدد غير قليل من العلماء والشعراء ومن بينهم الشاعر الكبير بدوي الجبل ومن هم في مثل علمه ورأيه .. وقالوا كلاما عن القصيدة لا أسمح لنفسي أن أذكره ..

الا أنني بعد أن سمعت الدكتور أسعد علي يلقي علي هذا المقطع الرائع بطريقته المدهشة في الالقاء خجلت من تلك القصيدة التي سهرت عليها أكثر من كل شعري مجتمعا .. خجلت .. وتمنيت أنني لم أقل شعرا .. والدكتور أسعد علي نفسه شهد للعديد من قصائدي ، وتلطف بسماعها واستزاد .. تمنيت ذلك على ما في من غرور بشعري ..

« أرأيت الشمس تتألق في قطرة ندى على جفن برعم ورد قبيل الصباح .. كذلك تشرق الروح في حجمه الصغير »

لن أشرح .. ولن أوضح أو أعلق ..

أي تعليق مهما بلغت رقته ، ورقت عبارته لا يجرح جمال هذا النص ؟!

انه فوق الفلسفة وأسمى ، وفوق الشعر وأجل ، الشعر الذي تعودنا أن نقرأه قبل أن نقرأ شعر هذا الفيلسوف الشاعر .. أو الشاعر الفيلسوف ..

لقد قلت : ان ثمن نسخة واحدة من ديوانه الصغير يعادل ثمن ما يملأ رفا أو أكثر من مكتبة من دواوين لقدماء ومحدثين .. فلماذا هذا السعر ؟! وليت لي نسخة من ديوانه .. اذا لانتفعت بثمن المكتبة .. غير نادم على المكتبة وما فيها .. ما دام في شعره مثل هذا المقطع من قصيدة « حسان العطاء »(٤)

ياعروس العطاء رفقا بشوقي
وافتحي الباب لي على الايحاء

واتركيني على المشارف سعيا
دائب الحب .. دائم الاهداء

ذوبيني على المنابع صفوا
واجعليني محبة في المساء

أشرب الناس من غرام صفائي
سلسبيلا ، ومن حنين هنائي

والتراب الظميء أمنحه رو
حي .. فيحيا بنشوتي وازدهائي

يستحيل التراب مثلي حبا
ومحبا .. منوع الاهواء

فيسوق النبات نغمة شوق
ونشيدا على شفاه الهواء

● ●

ايه ياغيد .. ياحسان العطاء
حببيني بشهوة الاعطاء

أمنح الصخر من حياتي حياة
وجناحا محلقا في الفضاء

أمنح الريح خيمة وديارا
وأمانا على دفيء ردائي

أمنح الارض، والبحار شمولي
وحنيني لخيرات اللقاء

أمنح الكون لهفتي لاتحاد
وجهاد على دروب السماء

علني .. عل ما يدور ببالي
بالغ بالوفاء أقصى الوفاء

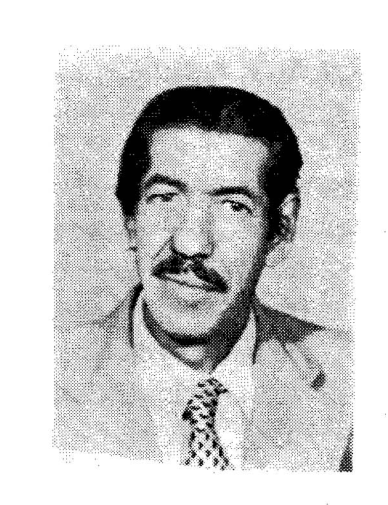
● ●

أيها الاقدمون .. هذا مافاتكم
أيها المحدثون .. ليتكم تسمعون !..

مصطفى عكرمة

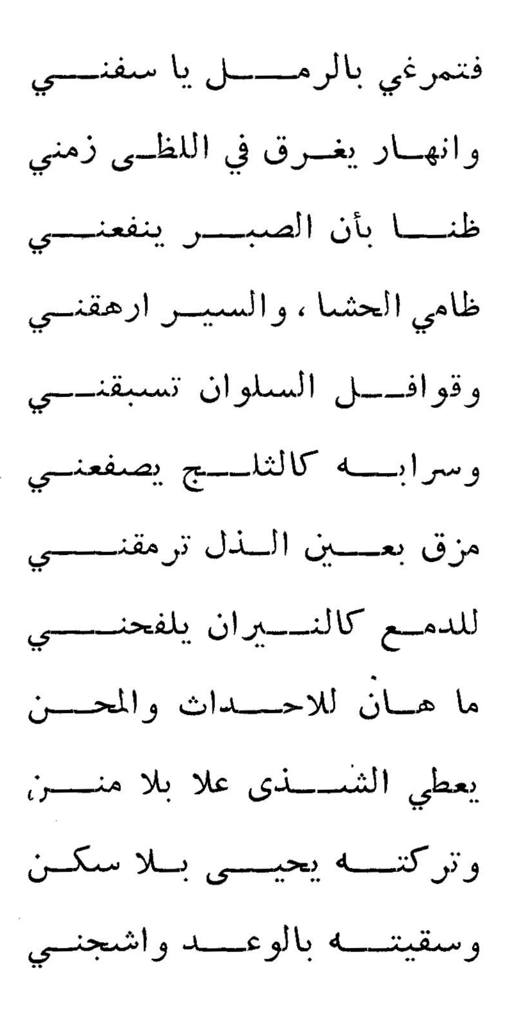
---

(١) انظر كتابه فن الحياة فن الكتابة ص ١٢٧
(٢) المصدر نفسه ص ٩٧ — (٣) انظر اهداء الكتاب المذكور .
(٤) ص ١٣٧ و ١٣٨ المصدر نفسه

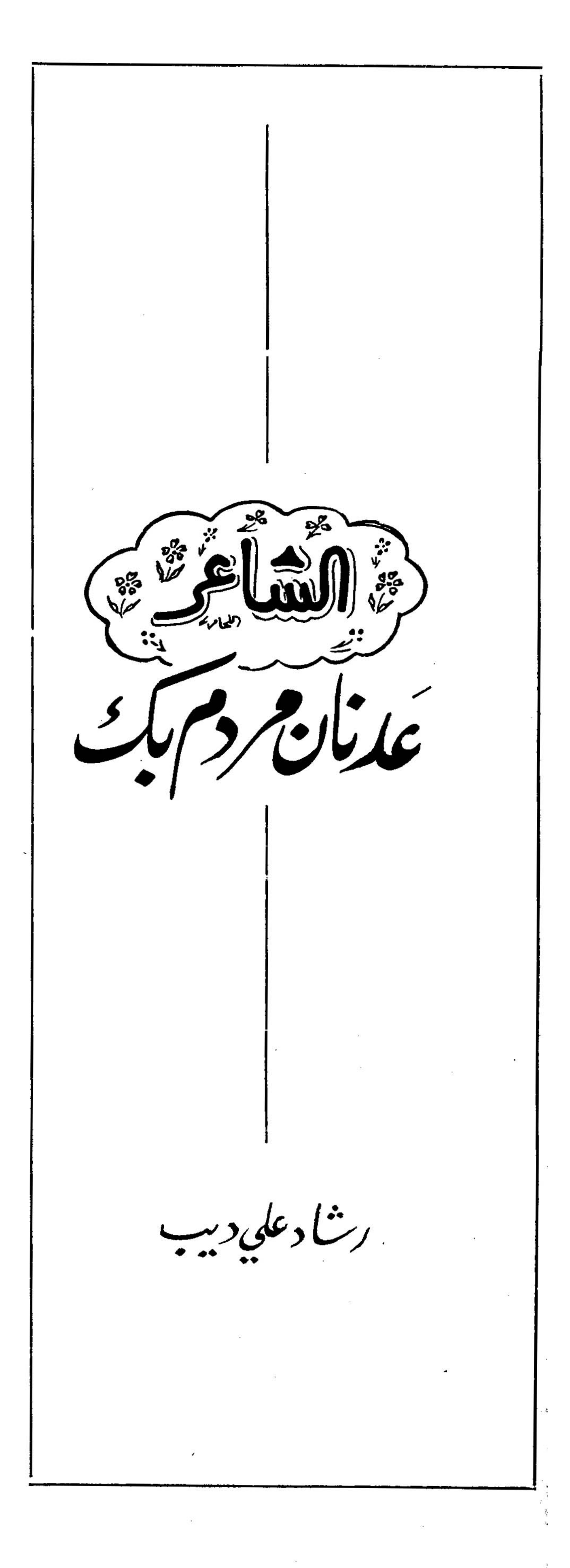




مصطفى بدوي



لا شيء للابحار يحملني ... فتمرغي بالرمل يا سفني
يبست بحار الشوق في نظري ... وانهار يغرق في اللظى زمني
اني طحنت الصبر الهمه ... ظنا بأن الصبر ينفعني
ونهدت للسلوان اطلبه ... ظامي الحشا ، والسير ارهقني
فاذا رماد الصبرفي رئتي ... وقوافل السلوان تسبقني
واذا انا في مهمه قفر ... وسرابه كالثلج يصفعني
واذا بآمالي على قدمي ... مزق بعين الذل ترمقني
للمنتها ومسحت منهمرا ... للدمع كالنيران يلفحني
وحملت قلبا هده وله ... ما هان للاحداث والمحن
قلبا كثغر الورد في دعة ... يعطي الشذى علا بلا منن
اشقيته واطلت غربته ... وتركته يحيى بلا سكن
واسيته بالمين وا أسفي ... وسقيته بالوعد واشجني



ولد عام ١٩١٧ ، وهو ابن شاعر الفيحاء خليل مردم بك ، رئيس المجمع العلمي العربي السابق ، وأمه السيدة زهراء الحمزاوي . تلقى دروسه الابتدائية والثانوية والعالية في دمشق ، ونال اجازة الحقوق من الجامعة السورية عام ١٩٤٠ ، ومارس المحاماة زهاء سبع سنوات ، ثم انتسب الى القضاء عام ١٩٤٨ ، وترفع حتى صار مستشارا في محكمة النقض عام ١٩٦١ ، وخرج من القضاء عام ١٩٦٦ .

وشاعرنا يتمتع بروعة الذوق الادبي والفني ، وبرهافة الحس ، والشعور الفياض والاسلوب اللطيف، والبيان الناصع ، والخيال الرفيع ، وهو كأبيه بارع الوصف كل البراعة ، وله قصائد مبتكرة بموضوعها ، لم يسبقه اليها شاعر ، كوصف شوارع دمشق وأزقتها ، وسنابل القمح ، وبائع العرقسوس وشواء الذرة والحائك ، والمولوي ، وندوة القصاص .

وتتجلى انسانيته في قصائده : الحطاب والحمال والخزاف وصانع الزجاج وغيرها ، وكل هذه القصائد مسرودة في ديوانه : (عبير من دمشق) ، وله ديوان آخر : (صفحة ذكرى) ، وديوان نجوى وهو أول ما ظهر له ، ولديه قيد الطبع ديوان (نفحات شامية) .

وأما مسرحياته فهي ثمان : ١ ــ غادة أفاميا ، ٢ ــ العباسة ، ٣ ــ الملكة زنوبيا ، ٤ ــ الحلاج ، ٥ ــ رابعة العدوية ، ٦ ــ مصرع غرناطة ، ٧ ــ فلسطين الثائرة ، ٨ ــ فاجعة ما يرلنغ ، وهو في المسرحيات الشعرية ثالث أثنين بعد شوقي وعزيز أباظة .

وقد نظم الشعر وهو في سن العاشرة ، ونشر بعض القصائد في مجلتي العرفان والبرق وهو في سن الرابعة عشرة ، والشاعر متزوج وله أولاد ، وزار بعض العوصم العربية والاوروبية ، وقد نال من الجمعية الاستشارية العالمية ومن اليونسكو في اسبوع الكتاب الصوفي العالمي لقب بروفوسور ومنح الجائزة العالمية الثالثة تقديرا لاعماله الصوفيةالادبية وبخاصةمسرحيته (رابعة العدوية) وذلك عام ١٩٧٢ .

ومن شعره الوصفي البديع قوله في قصيدته : (الغوطة في الربيع) .

طابت منابت تربهـا وتألقت
عن كل زاهرة تروق وتعشق

ما كان بدعا أن تطيب غراسها
ودم الضحيايا مائج متدفق

وازاءها ماض يشوق كتابه
فيه الفخار مدبج ومنمق

صفحاته فوق الثرى منشورة
هيهات تبلى أو ترث وتخلق

فهو يصف تربة الغوطة الخصبة الزاهية نضارة وغرسا ، والمرتوية بدماء الشهداء وهي تزدهي بالفخار والمجد والخلود في صفحات التاريخ .

ومنه قوله في قصيدته « دمشق في الليل » .

(بردى) يزغرد في مساربه
من نشوة وكأنه غرد

في كل مرحلة يسير بها
لحن له ، ووساوس ترد

قيثارة بيديه عازفة
ماكر دهر أو أهل غد

يستصرخ الماضي بنأمته
فيهب تاريخ ويحتشد

يصف الشاعر نهر بردى المنساب في مجاريه ، وهو يزغرد من الانتشاء كأنه طائر غريد ، وله في انسيابه انغام شجية ، عازفا بيديه قيثارة على مدى الدهر ، ذاكرا ماضيه المجيد بصوته الرخيم ، فينشط التاريخ لتسجيل مآثره ومفاخره .

وقوله في قصيدته الرائعة : (المولوي) .

شابت ذوائبه وما وهنت
في حلبة قدم له تثب

يجري بها ويلف منفلتا
كطريدة تنأى وتقترب

ويدور والاشواق تنشره
بيد وتطويه فيحتجب

وكأن جبته التي نشرت
ليل حيال الافق ينتصب

ويدور مثل فراشة لمحت
نارا ، فهزّ جناحها طرب

ما زال يفتل غير متئد
والشوق هدار ومصطخب

فكأنه كرة يطاح بها
في حلبة حينا وتنجذب

ما كان في دورانه ريب
هيهات ليس مع الهوى ريب

هذه الابيات الجميلة تصف المولوي وروحانيته الصوفية وفناءه بحب الله وتمجيده ، وتصوره بلباسه المهفهف الخاص به ، وفتلته الفنية باناقة ولباقة ورشاقة تنم عن رهافة حسه ولطافة نفسه وليونة جوارحه وذوبانه بتقديس الباريء الودود ، وشاعرنا مولع بتكريم الصوفيين والاشادة بهم والتنويه بأقوالهم وأفعالهم .

وقوله في قصيدته : « ربيع » .

صور كأحلام الشبا
ب وبسمة الامل النضير
نشر الربيع مطارفا
في الروض جلت عن نظير
نظمت حواشيها عيو
ن السحب بالدمع النثير
ومضى يطرزها الربيـ
ـع بوشي محترف خبير
وشي تلألأ نقشه
كالبدر في ليل ضرير

جعل الشاعر صور الربيع كأحلام الشباب وابتسامة الامل الناضر ، ورسم الربيع ناشرا أبراده الزاهية في الرياض الزاهرة ، وقد عز مثيلها وهي

مطرزة بالوشي الجميل وزخارف النقوش ..

وقوله في قصيدته (بائع القرقسوس) :

ألف الاذى وضراوة الفقـر
في عيشه المشبوب بالمـر
ومضى وراء الرزق مندفعا
كالنسر دون فريسة يجري
ما زل من وقر له قدم
أو ناء ظهر منه عن وقر
جثمت على الكتفين قربته
كلواعج الادواء في الصدر
طاساته بيديه هازجة
من نشوة عرضت ومن بشر
ومضت مزغردة ومن عجب
أروت وأورت دون ما تدري

هذه لوحة بارعة عن بائع العرقسوس ، تتجلى فيها الشاعرية بأجلى مظاهرها ، وتبين للملأ انسانية الشاعر ومقدرته على الوصف ، وكل أبيات القصيدة مصوغة على هذا المنوال البديع ، وحبذا لو اتسع المجال لسردها بتمامها .

وقوله في قصيدته (الراقصة العارية) :

درجت بأجنحة النسيـ
ـم مع الخيال تحلق
حسرت غلالتها ، ورا
حت في الوجوه تحدق
وبصدرها نجمان لا
يحكيهما متألق
عري يفيض بلاغة
ويضيق عنه المنطق
كل راء في عريها
أحلامه تتحقق

هذه الابيات الرقيقة تمثل الراقصة العارية،وهي تصفق بجناحيها كالورقاء حيال وكنها ، وهي كيفما دارت تدور أرواح المشاهدين، وأنى أشارت أظهرت مفاتنها التي تزيغ منها العقول ، وتأثم القلوب ، وقد تألقت بصدرها نجمتان ، وكأن عريها يفيض بلاغة ويعيا عن وصفه المنطق ، ووجد كل من رأى عريها أن آماله وأحلامه قد تحققت .

ومن شعره الوطني قوله في قصيدته (الوطن) :

وطني تقدس ذكره وتباركت
اسماؤه الحسنى بكل قصيد
هو معقل لبنوة في شدة
وكتاب مجد عن جدود صيد
ومناط آمال الرجال وكعبة
خفقت لها الاكباد عن توحيد

وقول في قصيدة (الشهيد) :

مهر المجد بالدما
ورأى الغرم مغنما
لا تسل عن نجاره
حسبه الجود منتمى
وهب الجسم للثرى
ورنا ينشد السما
وسقى الترب جرحه
وهو ميت من الظما

وهناك ورد بعض الدخيل في شعره كقوله : في قصيدة جبال لبنان :

أو أنها الطغراء في صحف الثرى
عز التراب وبها وعز الاثمد

الطغراء كلمة دخيل معربة ومعناها العلامة التي توضع في أعلى الاوامر السلطانية .

وقال في قصيدته (قلعة الحصن) وأسمها في التاريخ حصن الاكراد :

نشرت بيارقها كأن سفينة
راياتها نشرت حذار كمين

البيارق ، جمع بيرق ، كلمة دخيل وعربيتها الرايات .

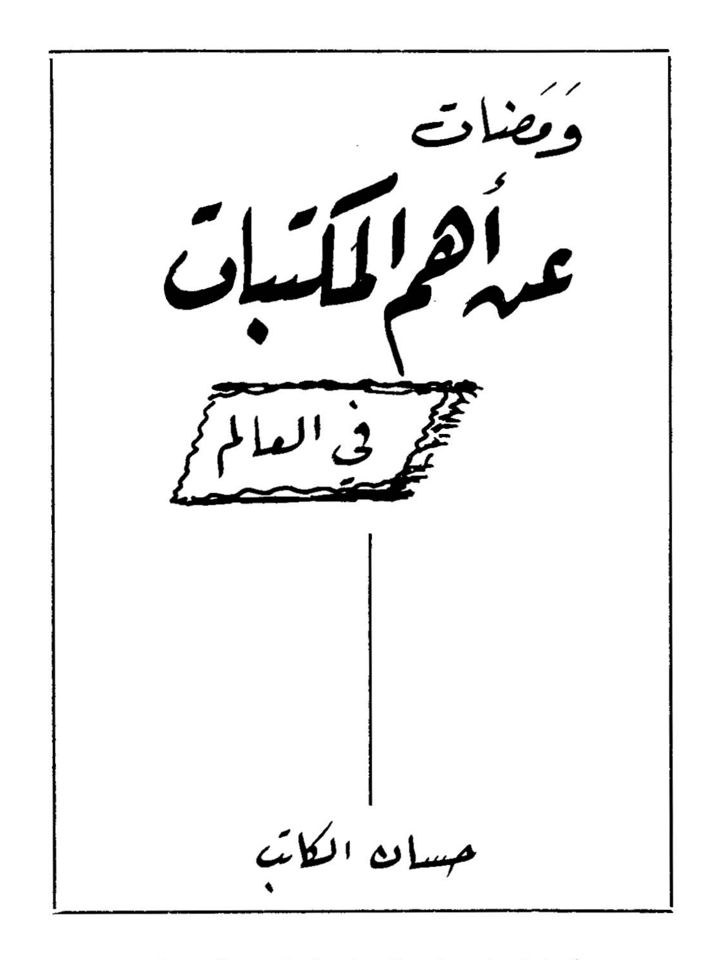
وقال في قصيدته (الثغور السلبية) :

لهفي على وطن به أمراؤه
وملوكه الاعداء والاخصام

الخصم جمعه خصوم ، وأما الاخصام فجمع خصم وهو بمعنى الجانب .

رشاد علي اديب

● **كتبها الفقيد قبل وفاته بأيام في جبله ..**



سأحاول في هذه الدراسة الموجزة ان ألقي بعض الاضواء على مؤشرات الثقافة في العالم .. ومن أهم هذه المؤشرات المكتبات .. التي تعتبر بحق من أهم مراكز الاشعاع الفكري في الماضي والحاضر .

فالكتاب في معركتنا المزدوجة هو الركن الاول والدعامة الاساسية ، انه طريقنا الى دحر الغزاة الصهاينة المستعمرين ، وانه سبيلنا الى القوة والمنعة والظفر ، به نواجه تحدي عصر طابعه العلم المتطور ، ولا وسيلة سواه للنهوض بمجتمعنا العربي الذي اضعفه التخلف وأنهك الجهل قواه . (١)

وان المعرفة لم تعد شيئا ينبجس من عقل العالم أو ذهن الاديب من غير معاناة او ممارسة أو اطلاع بل هي حصيلة لما انتجته العقول في مختلف الازمان وأصبح معروفا في السابق . ومن هنا كان دور المكتبة دورا أساسيا في كل تقدم علمي وتطور فكري بل وفي كل بناء حضاري . (٢)

وقد يعتقد بعضهم ان المكتبة وليدة العصر الحضاري الحديث ، غير أن عمليات الحفريات التي اجريت في عواصم الحضارات قد اسفرت عن أن المكتبة ، مثل الكتابة ، كانت قديما ، ويرجع تاريخها الى ما قبل الميلاد بأكثر من ـ ٣٠٠٠ ـ سنة .

هذا وقد كان يظن أن أقدم تاريخ لتأسيس المكتبات ★ كشفها المنقبون الامريكيون في ـ نفر ـ في العراق . الا ان الحفريات الاثرية الاخيرة في سورية كشفت عن آثار مملكة ـ ابلا ـ وعمرها اربعة آلاف سنة وهي بالقرب من مدينة حلب شمال سورية ومما أثار الدهشة والغرابة في نتائج هذه التنقيبات ، اكتشاف الارشيف الرسمي ، المكتوب بالخط المسماري والموجود في القصر بحيث يشكل مجموعتين ، موضوعتين في جهتين مختلفتين من ساحة الاجتماعات ، في كوى صغيرة مغلقة احدى المجموعتين تحتوي على الف من الالواح ، والمجموعة الاخرى يبلغ عدد رقمها خمسة عشر الف لوح او كسرة لوح . كما كشفت مدرسة من عصر حمورابي الذي حكم ـ ٤٣ ـ سنة (١٧٨٢ ـ ١٦٨٦ ق.م) قيل انها أقدم مدرسة في الوجود ، وكشفت الحفائر في « الوركاء » عن مجموعة من القوائم ترجع الى عهد ما قبل ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد(٣) واكتشفت البعثة الامريكية ١٨٨٨ ـ ١٩٠٠ م في وادي الفرات مكتبة تحتوي على حوالي ٣٠٠٠٠ وثيقة تتعلق(٤) بالشؤون الادارية والادبية ، ترجع الى حوالي ٢٧٠٠ ـ ١٩٠٠ ق.م(٥)

وقد ذكر المؤرخ الجغرافي استرابون أن أشهر المكتبات الآشورية كانت في معابد أشور وأربك وكلسن

ونينوى ومعظم النصوص كتبت باللغة السومرية وهي لغة الشعوب الساكنة حول نهر الفرات قبل ظهور المدنية الآشورية .

ولما فتح الكلدانيون نينوى سنة ٩٧٠ ق.م أشعلوا النار فيها فحرقت مكتبة الملك ولكن النار لم تؤثر في الطين وخرجت اللوحات سالمة من الكارثة وهي اليوم محفوظة بالمتحف البريطاني في لندن حيث أصبحت من أهم المصادر التاريخية لضبط المعلومات عن الآشوريين وحضاراتهم وخاصة عن دياناتهم(٦) وهذا ماحدث بالضبط لالواح قصر ايبلا التي تحدثنا عنها قبل قليل حينما زحف الملك الاكادي نارام سن حفيد سرجون على مملكة ايبلا في عام ٢٢٥٠ ق.م اذ دمر المدينة وحرق قصرها وقد أصاب الحريق في القصر الرفوف الخشبية التي كانت تحمل الالواح وحولها الى بقايا متفحمة ، لكنه في الوقت ذاته شوى تلك الالواح الطينية وحولها الى قرميد متين يتحدى الدهر ، فحفظ لنا بذلك أضخم الكنوز الاثرية في التاريخ . (●)

واكتشفت البعثة الفرنسية عام ١٩٣٣ م في تل الحريري بسورية موقع مدينة هامة تسمى « ماري » فيها مجموعة ضخمة من الوثائق المكتوبة وهي عبارة عن لوحات من الطين المجفف بالشمس كتب عليها بالخط المسماري الآكادي (البابلي) تبلغ ٢٠,٠٠٠ وثيقة وجدت متفرقة في عدد من القاعات وأكثرها وجد في مكتبة القصر الملكي وهي تبحث في شتى المواضيع وأغلبها يعود الى حوالي ٢٠٠٠ قبل الميلاد(٧)

وقد عرفت المكتبات الخاصة ببلاد الاغريق القديمة منذ القرن السادس قبل الميلاد ، كما عرفت المكتبات العامة منذ ٣٣٠ ق.م وأهم المكتبات المشهورة في العالم القديم مكتبتا الاسكندرية التي أنشأها بطليموس الاول ٣٢٣ – ٣٠٩ ق.م وبرجامون . وجلب الرومان مكتباتهم الاولى من بلاد اليونان وآسيا الصغرى وسورية وفي أعقاب انتشار النصرانية بأوربا كان للاديرة والكنائس الكبيرة مكتباتها الخاصة ، وتلك كانت نواة المكتبات العامة . وانشأ العرب عدة مكتبات ، من اشهرها مكتبة بيت الحكمة ببغداد التي أنشأها الخليفة المأمون ٨١٣ – ٨٣٣ ، ودار كتب سابورين ازدشير المتوفى عام ١٠٢٥ ببغداد ، ومكتبة المدرسة النظامية ، والمكتبة المستنصرية بقرطبة أنشأها الخليفة الحكم المستنصر ٩٦١ – ٩٧٦ ، ودار الحكمة بمصر التي اسسها الخليفة الحاكم عام ١٠٠٥ وفي القرن الخامس عشر تأسست مكتبة الفاتيكان بروما ، وكانت مكتبة السوربون بباريس قد أسست منذ ١٢٥٧ م ومنذ ذلك الحين الحقت بكل جامعة مكتبة عامة كبيرة .

وسنستعرض فيما يلي أشهر المكتبات المعاصرة في العالم مع تعريف للمكتبات الهامة منها والمشهورة جدا

آ – في العالم العربي والاسلامي :

نذكر فيما يلي : الدول مرتبة على حروف الهجاء ونذكر لكل دولة أشهر مكتباتها ، ونكتفي بذكر دور الكتب العامة ، من غير أن نتعرض لذكر مكتبات القصور والوزارات والجامعات والمؤسسات والمجامع العلمية والمكتبات الخاصة وغير ذلك حتى لا يطول البحث .

● الاردن وفلسطين :

١ – مكتبة المسجد الاقصى بالقدس .

٢ – المكتبة الخالدية بالقدس .

٣ – دار الكتب الاردنية في عمان .

هذا الى جانب المكتبات الاخرى في البلدان الكبرى في فلسطين وشرق الاردن .

● تونس :

١ – مكتبة الجامع الكبير في القيروان .

٢ – مكتبة جامع الزيتونة .

٣ – المكتبة العبدلية والمكتبة الصادقية .

٤ – المكتبة العمومية (المركزية) في تونس .

● الجزائر :

١ – المكتبة العربية بجامع البالي في مدينة عنابة .

٢ – مكتبة مدينة بجاية .

٣ – المكتبة الباديسية .

٤ ـ المكتبة الاهلية في مدينة الجزائر .
٥ ـ مكتبة الجامع الكبير في مدينة الجزائر .

● **سورية :**

١ ـ دار الكتب الظاهرية بدمشق(٨)
٢ ـ دار الكتب الوطنية في حلب(٩)
٣ ـ دار مكتبات الاوقاف الاسلامية في حلب(١٠)
هذا الى جانب دور المكتبات في أمهات المدن السورية

● **السعودية :**

١ ـ خزانة كتب الحرم المكي بمكة المكرمة .
٢ ـ مكتبة مكة المكرمة .
٣ ـ مكتبة الحرم النبوي بالدينة المنورة .
٤ ـ مكتبة عارف حكمة بالمدينة المنورة .
٥ ـ المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة .
٦ ـ دار الكتب الوطنية في الرياض .
٧ ـ دور الكتب التابعة لادارة الفتوى المنتشرة في أمهات المدن السعودية ومن أشهرها المكتبة السعودية في دختة .

● **السودان :**

١ ـ المكتبة العامة في أم درمان .

٢ ـ خزائن الكتب الملحقة في المساجد .

● **العراق :**

١ ـ دار الكتب العمومية في بغداد .
٢ ـ المكتبة العامة في بغداد .
٣ ـ مكتبة الاوقاف العامة في بغداد ضمت بقايا خزائن مساجد بغداد .
٤ ـ مكتبة جامع النجف الاشرف وهي المكتبة الحيدرية .
٥ ـ المكتبة الحسينية في النجف .
٦ ـ مكتبة غازي في الموصل .

● **الكويت :**

١ ـ المكتبة العامة في الكويت .

● **لبنان :**

١ ـ المكتبة الوطنية في بيروت .
٢ ـ مكتبة الجامع الكبير المنصوري في طرابلس .
٣ ـ مكتبة الجامع الكبير في صيدا .

● **ليبيا :**

المكتبة الوطنية بطرابلس .

● **مصر :**

١ ـ دار الكتب المصرية بالقاهرة تأسست عام ١٨٧٠م وفي عام ١٩١٤ أدار شؤونها أول مصري هو أحمد لطفي السيد وقد بلغ تعداد ما فيها من كتب أكثر من مليون مجلد .
٢ ـ مكتبة الجامع الازهر : وهي من أشهر مكتبات العالم الاسلامي وتمتاز بكثرة كتبها ومخطوطاتها النادرة وقد أنشئت عام ١٨٩٧
٣ ـ المكتبة العامة لبلدية الاسكندرية .
٤ ـ مكتبات أمهات المدن المصرية الكثيرة .

● **المغرب :**

١ ـ المكتبة العامة في الرباط وفيها خزانة للمعهد العلمي للدراسات المغربية العليا فيها مخطوطات قيمة قد نشر المعهد بعضها . وللخزانة فهرس جيد .
٢ ـ مكتبة جامع القرويين بمدينة فاس .
٣ ـ خزانة الجامع الكبير في طنجة .
٤ ـ مكتبات أمهات المدن المغربية كفاس وسلا ومكناس ومراكش وتازة ووجدة والدار البيضاء وغيرها

● **اليمن :**

المكتبة العمومية في جامع صنعاء . فيها نفائس الكتب المخطوطة الكثيرة الى جانب المطبوعة .

. . .

وفيما يلي نذكر المكتبات في بعض البلاد الاسلامية :

● **ايران :**

١ ـ مكتبات طهران عاصمة ايران أو بلاد فارس حيث كانت احدى الاقاليم في الدولة الاسلامية الكبرى،

ثم تعددت فيها الامارات حين ضعفت الدولة العباسية، وقد تخرج فيها كثيرون من العلماء وكان فيها مكتبات عظيمة ، انتقل معظم ما فيها الى مكتبات ايران ..
أشهر مكتبات طهران الخزانة الشاهانية فيها نحو خمسة آلاف مخطوطة ، والخزانة الناصرية فيها مخطوطات نادرة ، وخزانة الحاج حسين آغا الملقب بملك التجار وخزانته معروفة باسم خزانة ملك التجار وغيرها من المكتبات .

٢ ــ مكتبات أصفهان .

٣ ــ مكتبات تبريز .

٤ ــ مكتبات زنجان .

٥ ــ مكتبات اردبيل .

٦ ــ مكتبات امهات المدن في ايران كمكتبات ساوه ومشهد وفي خزانة كتب مدينة مشهد كتب نادرة قديمة

● تركيا :

١ ــ مكتبة الجامعة في استنبول فيها سبعة عشر الف مخطوط وفي هذه المكتبة نحو مائة وأربعين ألف مجلد تضم بينها ٩٢٨٦ مخطوطة تركية و٦٣٧٤ مخطوطة عربية و ١٣٧٩ مخطوطة فارسية مجموعها ١٧٠٣٩ وقد كان في استنبول ٤٢ مكتبة لكل مكتبة فهرس خاص بها يشمل المخطوط والمطبوع . ثم ضم بعض المكتبات لبعض

٢ ــ المكتبة العمومية في استنبول فيها ٥٢٠٠ مجلدا مخطوطا .

٣ ــ مكتبة الفاتح ملحقة بمسجد فاتح في استنبول فيها ستة آلاف مخطوط .

٤ ــ مكتبة نور عثمانية فيها خمسة آلاف مخطوط

٥ ــ مكتبة السليمانية .

٦ ــ مكتبة مدينة بروسة .

٧ ــ مكتبة سراي طبقيو في استانبول .

٨ ــ مكتبة علي أميري فيها نحو ٢٠ ألف مخطوط .

● الهند :

١ ــ مكتبة الجمعية الاسيوية في كلكتا .

٢ ــ خزانة كتب جامعة كلكتا .

٣ ــ مكتبة بوهار في كلكتا .

٤ ــ خزانة المولى فيروز في بومباي .

٥ ــ المكتبة العمومية في بانكيبور . فهرس كتبها العربية في ٤ مجلدات .

٦ ــ مكتبة حكومة الهند الشرقية في مدارس

٧ ــ دار الكتب الآصفية في حيدر آباد .

٨ ــ المكتبات الكثيرة الملحقة بالمساجد في كثير من مدن الهند .

ب ــ أشهر المكتبات التي تضم المخطوطات العربية في أوربا وأمريكا :

تضم مكتبات أوربا وأمريكا نحو مائة ألف مخطوط عربي على أقل تقدير ، هذا سوى ما في مكتبات المستشرقين ، وأساتذة الجامعات وما في أيدي الناس ممن لهم عناية بالمخطوطات العربية والآثار الشرقية . منها نحو سبعين ألف مخطوط في أوربا ، وأكثر من عشرين ألف مخطوطة عربية في خزائن الكتب الامريكية في الولايات المتحدة ويعود اهتمام الفرنجة بالمؤلفات العربية الى القرن العاشر الميلادي ، فجمعوا ما ألفه العرب في الطب والفلسفة والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والادب واللغة وغيرها وترجموا بعضها الى لغاتهم وازداد اهتمامهم بالمؤلفات العربية أثر احتكاكهم بالمسلمين أثناء الحروب الصليبية ـ١٠٩٦ ــ ١٢٩١ـ .

وجل المخطوطات العربية في أوربا محفوظة في مكتبات انكلترا وفرنسا والمانيا وهولندا وروسيا واسبانيا وايطاليا والنمسا والسويد والدانمرك .

● انكلترا :

١ ــ مكتبات لندن العامة .

٢ ــ مكتبة بودلي : اسست في اكسفورد عام ــ ١٦٠٣ ــ م وهي تحتوي على اكبر مجموعات المخطوطات العربية بأوربا وتقدر بحوالي ــ ٣٠٠٠ ــ مخطوطة جلب اكثرها ادوارد بوكوك ــ ١٦٠٤ ــ ١٦٩١ ــ المستشرق البريطاني ، وروبرت هننفتن ــ ١٦٣٧ ــ ١٧٠١ والمستشرق جوليوس ــ ١٥٩٦ ــ ١٦٦٧ ــ وجيمي فيليب درفيل ، وجيمس بروس و ج . ب اليوت وغيرهم . قام بعمل فهرسها الاول جون يوري عام ــ ١٧٨٧ ــ م وعكف اسكندر نيقول ــ١٧٩٣ ــ ١٨٢٨ ــ على عمل فهرسها الثاني ، واكمله الاستاذ ادوارد يوفري يوسي ــ ١٨٠٠ ــ ١٨٨٢ ــ م .

٣ ــ مكتبة كمبردج

انظر فهرس احياء المخطوطات ومقدمة بروكلمان وخزائن الكتب العربية في الخافقين ٣٣٢ ج ولمحات في المكتبة والبحث والمصادر للدكتور محمد عجاج الخطيب

● **فرنسا :**

١ ــ المكتبة الاهلية بباريس وفيها ــ ١٢٥ ــ الف مخطوطة منها ــ ٢٥ ــ ألف مخطوطة شرقية معظمها عربي وقد عرفت هذه المكتبة بمكتبة الملك وهي من اهم المكتبات في العالم تحتوي على أربعة أقسام : ١ ــ للمطبوعات والخرائط . ٢ ــ المخطوطات . ٣ ــ الخواتم ٤ ــ التحيات والاوسمة . تشتمل على أكبر مجموعة من الكتب المطبوعة والمخطوطات منذ القرن السادس عشر .

● **ايطاليا :**

١ ــ مكتبة امبروزو :

احدى كبريات مكتبات ايطاليا الاهلية بمبلان اسسها عام ــ ١٦٠٩ ــ الكاردينال فدريجو بوروميو ــ تضم حوالي ــ ٦٠٠٫٠٠٠ ــ كتاب مطبوع و ــ٢٠٠٠ــ كتاب نادر ــ محمل ــ مطبوع يرجع الى اوائل عهد الطباعة ، و ــ ٢٥٠٠٠ ــ مخطوط حسب احصائية عام ١٩٥٤ دمر جزء من مبناها في أثناء الحرب العالمية الثانية ولكن الكتب لم يمسها سوء . تشتمل المكتبة على بعض المخطوطات العربية المصورة .

٢ ــ مكتبة الفاتيكان

٣ ــ مكتبات فلورنسا .

٤ ــ مكتبات البندقية وغيرها .

● **اسبانيا ــ الاندلس ــ:**

١ ــ مكتبة ديرالاسكوريال في مدريد على بعد ــ ٥٠ ــ كم من مدريد وهو دير فخم شيد عام ــ١٥٦٧ــ والحقت به دار كتب كبيرة تضم نفائس المخطوطات في العالم .

٢ ــ المكتبة الاهلية بمدريد .

٣ ــ مكتبة غونطا .

المانيا :

تعتبر مكتبات ألمانيا من أغنى مكتبات أوربا بالمخطوطات العربية ففيها ــ ١٥ ــ الف مخطوط وأغنى مكتبات المانيا بالمخطوطات مكتبة ــ برلين ــ فان فهارس مخطوطاتها تقع في عشرة مجلدات كبيرة سوى الملاحق . والى جانب مكتبة برلين مكتبات اخرى ، فهناك مكتبة مدينة لبزغ ومكتبة هامبورغ ومكتبة ميونخ ، ومكتبة الجمعية الشرقية الالمانية .

● **روسيا :**

١ ــ مكتبات لينغراد وفيها اربع مكتبات كبيرة .

٢ ــ مكتبة لينين في موسكو : احدى كبريات المكتبات في العالم سميت باسم لينين عام ١٩٢٤ وكانت تشتمل في حوالي منتصف القرن العشرين على ــ١٤ــ مليون مجلد غنية بالكتب المطبوعة النادرة وبالمخطوطات التاريخية التي يقدر عددها بـ ــ ٤٦٫٠٠٠ ــ نشرت عدة فهارس لمجموعاتها . نمت نموا كبيرا في اعقاب الثورة الروسية ، بعد مصادرة عدة مكتبات كبيرة ، وضمها اليها وشيد لها مبنى جديد عام ١٩٣٠ .

٣ ــ خزانة المخطوطات في جامعة قازان بمدينة قازان بروسيا .

٤ ــ خزانة طاشقند في مدينة طاشقند التابعة لاتحاد جمهوريات السوفييت الاشتراكية .

٥ ــ خزائن الكتب القديمة في المدن الجنوبية والجنوبية الشرقية من الاتحاد السوفييتي .

● **هولندا :**

١ ــ مكتبة أكاديمية ليدنأشهر مراكز الاستشراق في العالم .

٢ ــ الخزانة الملكية في امستردام (١١) .

● **النمسا :**

١ ــ مكتبة النمسا .

٢ ــ مكتبة الاكاديمية الشرقية بفيينا .

● **السويد :**

١ ــ مكتبة جامعة ايسالا .

٢ ــ المكتبة الملكية في استوكهم .

● **الدانمرك :**

١ ــ خزانة كوبنهاغن وهي من أشهر مكتبات أوربا .

● **الولايات المتحدة الامريكية :**

١ ــ مكتبة الكونغرس في واشنطن . فخرالمكتبات الامريكية تأسست عام ١٨٠٠ وفي ١٨١٤بلغ عدد كتبها

ـ ٣٠٠٠ ـ مجلد اصابها حريق في تلك السنة فدمرها وشيدت من جديد لكن حريقا اخر التهم ثلثي المكتبة عام ـ ١٨٥١ ـ وتتألف المكتبة اليوم من مبنيين كبيرين هما أوسع ما اتخذ من مبان للمكتبات في العالم ويقوم المبنى على رقعة مساحتها ـ ١٦٢٦٦٢ ـ متر مربع ـ ١٨٩٧ ـ ١٩٣٩ ـ ويقدر عدد محتوياتها من الكتب حسب النشرة الاحصائية الفرنسية العالمية لعام ١٩٦٥ ب ـ ١٢٫٥ ـ مليونا من الكتب عدا المخطوطات ومجلدات الصحف والمجلات والخرائط وغيرها تملك مجموعة طيبة من المخطوطات العربية ـ ١٥٤٩ ـ والمخطوطات الفارسية نحو ـ ٨٣ ـ والتركية ـ ١٤ ـ .

٢ ـ المكتبة العامة في نيويورك : وهي اعظم مكتبة عامة في امريكا بعد الكونغرس تحتوي على حوالي ـ ٥ ـ ملايين من المجلدات ولها ـ ٦٥ ـ فرعا في أنحاء نيويورك تملك حوالي ـ ٢٧٣ ـ مخطوطة عربية وتحرز مجموعة من ألواح الصلصال المنقوشة بالمسمارية ترجع الى سلالة ادر الثالثة . كما انها تملك ترجمات كثيرة للقرآن الكريم الى مختلف اللغات الشرقية والغربية .

تلك لمحة سريعة عن المكتبات في العالم أبرزت معالم التراث والفكر الانساني على مر العصور .

حسان بدر الدين الكاتب

---

(١) من كلمة السيد الدكتور شاكر الفحام وزير التعليم العالي آنذاك وزير التربية حاليا التي ألقاها في افتتاح الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوراقة « البيلوغرافيا » والتوثيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية التي أقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية بالتعاون مع حكومة الجمهورية العربية السورية في دمشق من ٢ـ١١ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٧١ ـ صفحة (١٠) .. ولقد صدرت وقائع هذه الحلقة بكتاب ضخم عن وزارة التعليم العالي عام ١٩٧٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ـ من كلمة الاستاذ احمد القادري مدير الدراسات التربوية العامة بوزارة التعليم العالي .

(●) انظر صفحة ٤٨٣ من مجلة المعلم العربي بحث للبروفسور باولو ماتييه رئيس بعثة التنقيب الايطالية في شمال سورية ترجمة الاستاذ فريد جحا ومجلة العربي استطلاع بعنوان مملكة ايبلا للاستاذ فهمي هويدي العدد ٢٢٥ وتعقيب الدكتور عفيف بهنسي المدير العام للآثار في سورية في مجلة العربي العدد ٢٢٦

(٣) عن كتاب تاريخ العلم لجورج سارتون ، العالم القديم في العصر الذهبي لليونان ج١ ترجمة ابراهيم بيومي مدكور وآخرين اصدار دار المعارف عام ١٩٦٣ ص ١٦٠

(٤) نفس المصدر السابق ـ بحث للاستاذ صالح ونيس عبد النبي أمين مكتبة الآثار في الجمهورية العربية الليبية ـ شحات ـ ص ٤٩٧

(٥) كان من بين المكتشفات التي عثر عليها ألواح رياضية متضمنة قضايا جبرية في تل ضباعي ترجع الى الالف الثاني قبل الميلاد ، أي أن أسس العلوم الرياضية قد وضعت في حضارة وادي الرافدين قبل ٤٠٠٠ سنة وقبل أن يؤلف اليونانيون الرياضيات بأكثر من ١٥٠٠ سنة

(٦) مكتبة آشور بانيبال هي المكتبة الوحيدة التي اكتشفت ، وقد وجدت فيها عدة ألواح يحمل كل لوح فيها بطاقة تماما كما نرى في كتب مكتباتنا الحديثة ونقرأ على احدى تلك البطاقات « قصر آشور بانيبال » ملك العالم وملك آشور » كما جاء في كتاب تاريخ العلم القديم في العصر الذهبي لليونان » (●) انظر ص ٩٦ من العدد ٢٢٥ من مجلة العربي .

(٧) دليل مختصر للمتحف الوطني بدمشق للاستاذ محمد فرج أبو العش ـ دمشق مطبعة دار الحياة ١٩٦٩ ص ٤٥

(٨) دار الكتب الظاهرية : نسبة الى الملك الظاهر بيبرس المتوفي سنة ٦٧٦ هـ . وكانت مدينة دمشق حافلة بخزائن الكتب الكثيرة القيمة قبل أن تحل بالبلاد الشامية النكبة الكبرى على يد السفاح الطاغية (تيمور لنك) سنة ٨٠٣ هـ الذي نهب البلاد وسبى النساء وساق الاولاد والرجال ، مكبلين بالحبال ، وحرق الدور والمساجد وبقيت دمشق تحترق ثلاثة أيام حتى صارت أطلالا بعد ازدهار وقد قام هذا الطاغية مع جيشه ثمانين يوما وبعد ذلك جمع ما بقي من الكتب من مختلف خزائن دمشق في الظاهرية ويعود الفضل للشيخ طاهر الجزائري ١٢٦٨ ـ ١٣٣٨ ق في جمع شتاتها وصيانتها .

(٩) كان المجمع العلمي العربي في دمشق قد أسس فرعا في حلب للمكتبتين الظاهرية والعادلية ، وبقيت الحال كذلك حتى سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م حيث أنشئت هذه الدار .

(١٠) كانت لكثير من مساجد حلب خزائن عامرة بالكتب تسللت اليها يد الاتلاف والضياع والسرقة ، أنقذت مديرية الاوقاف بحلب مابقي منها وضمته جميعه في خزائن خاصة في الدار المذكورة .

(١١) للتوسع يرجى مراجعة كتاب لمحات في المكتبة والبحث والمصادر للدكتور محمد عجاج الخطيب .



الدكتور أحمد سليمان الأحمد

نزار النجار

● الشاعر الدكتور أحمد سليمان الاحمد يهرب من النبرة العالية ، والتعبير المباشر ، ولكنه أحيانا ـ كما رأيته في أشعاره الجديدة ـ يحوم حول الفاظ بعينها أصبحت مترددات في الشعر الجديد ، وهو يعتمد في نقل تجربته الشعرية على عناصر حديثة غير الواقع الخارجي كالرمز والدراما وغير ذلك ، وهو يبني بصورته الشعرية على أساس من الالفاظ ذات الظلال والرموز والايقاع الهامس العميق .. والشاعر متزن لا ينحرف الى متاهات من الرؤى الغائمة ..

وهو لا ينسى دائما في تجربته الشعرية أن يزاوج بين ارتباطه بقضايا العصر والعوالم الانسانية الكبيرة ، والتطلع الانساني الى الحرية والعدالة والجمال .. في أشعاره الجديدة يبلغ أحمد سليمان الاحمد مدى بعيدا من التوفيق في الشكل الجديد الذي يحتفظ بما للشكل التقليدي من ايقاع وقواف ان لم تلتزم فانها تتكرر على نحو ملحوظ يجعل لبعض السطور صفة المقطوعة ، وينتفع مع ذلك كله بمرونة الشعر الحر وتحرره من التقسيم المنتظم والقافية الواحدة ..

أصدر الشاعر حتى اليوم سبع مجموعات شعرية وهي : الديوان الجديد ، أغان صيفية ، الكلمة للشمس والشهيد ، الرحيل الى مدينة التذكار ، نوافذ البروج المضاءة ، بستان السحب ، أرواد وحلم آخر في العيون

وله مسرحيتان شعريتان :

● مم وزين (عن الكردية للشاعر الكردي أحمد الخاني

● المأمونية (قصة المغنية العباسية الشهيرة) وثلاثة كتب هي : المسرح الشعري ، وهذا هو الشعر ، وقد كان هذا الكتاب مقررا لدى طلاب كلية الاداب في جامعة دمشق التي يدرس فيها الدكتور الاحمد ، وكتاب الشعر العربي والقضية الفلسطينية ..

وهناك ديوانان تحت الطبع :

● مقاطع مهموسة الا مقطعا بصوت مرتفع .

● الملقات السبع في الجاهلية الاخيرة .

قلت له :

● لاحظت قلة اهتمامك بالوحدة العضوية في القصيدة الواحدة ، خاصة في قصيدتي المتنبي ومحجرة الحزن من ديوان حلم آخر في العيون ، فبماذا تفسر ذلك ؟؟..

● لا يمكن أن تحدد الوحدة العضوية في أية قصيدة

ولكن المهم أن يكون هناك جو واحد في القصيدة الواحدة (أما الموضوع فلا يمكن حصره أبدا) وشعرنا العربي طبعا فيه وحدة القصيدة ، وفيه وحدة الجو ، ووحدة الحالة النفسية ، والوحدة معروفة حتى في الشعر العالمي ، وفي قصيدة المتنبي التي ذكرت عرضت المتنبي كما أراه ، وأفهمه ، وجعلته شاهدا على العصر ، وأعتقد أنني أوصلت ذلك الى القارىء ..

● كيف تعلل صلتك بالتراث وأنت شاعر مجدد في أشعارك ؟

● التجديد قضية لا بد منها ، ولا يمكن للتجديد أن يبنى الا على أساس من التراث ، وتفهم لهذا التراث بوعي وبعمق ، بالاضافة الى تجربة الشاعر الشخصية والى معاناته ثم تمثل روح العصر في ذلك كله .. بمعنى آخر أنا أحاول أن أعطي للتراث روح العصر ..

● اذن لماذا تستعمل أحيانا رموزا يونانية وأساطير غربية في قصائدك ، أليس في تراثنا البديل عنها ؟؟

● يخيل الي أن استعمال هذه الرموز بشكل عام هي ضرورة ، فهل يضيرني - في رأيك - استعمالها ، فهي أصيلة ولذلك فهي مقبولة .. والحقيقة انني متأثر بالشعر العالمي ، ومن يقول انه غير متأثر فهو مزور مزور على نفسه وعلى شعره .. لان الشاعر يعيش الحالة الشعرية الخلاقة ، ولكن التأثر لا يعني النقل ، والتأثر يفتح للشاعر أبواب ثقافات متنوعة ، يفتح أمامه عوالم جديدة .

● في أشعارك تزاوج بين الشكل الكلاسيكي والشكل الجديد فكيف تفسر هذا ؟؟

● صحيح ، وأنا أحب أن أقول لك أولا أنه لا يمكن للشاعر امتلاك الاداة الفنية دون أن يقرأ خير ما في تراثنا وأعتقد أكثر من ذلك أن الشكل الكلاسيكي لا يتوفر الا لمن بلغ درجة كبيرة من امتلاك اللغة والتراث ، ومن اكتسب ثقافة واسعة ، أنا أومن بأن الشكل العمودي لم يعد الشكل الاوحد ، هناك أشكال أخرى هناك شكل التفعيلة ، ولكن يظل الشكل العمودي هو الشكل الاسمى للفن ، وأنا بصدد تأليف كتاب عن هذا الشكل الاسمى ولا يبدع بهذا الشكل الا من كان قمة حقيقية في الشعر العربي

والحقيقة انني أحاول الاستفادة من التراث ، ولقد كان معظم ارتكازي في ديواني الاخير على القرآن الكريم ، وأنا أحب استعمال التعابير الهائلة المذهلة واستخدامها في مواضيع العصر ..

● ولكن ، رأيت أنك في كتابك هذا هو الشعر تحاول الانتصار للشعر الحديث .. فماذا تقول في ذلك ؟

● نعم ، في كتابي (هذا هو الشعر) استعرضت الشعر الحديث ماله وما عليه ، وكان حرصي أن أجنبه الكثير من المزالق التي يقع فيها ، فيتلافاها ..

وأعتقد أنه كتاب ذو أهمية كبرى ولكنه لم ينل الاهتمام حتى الان ..

● ولماذا لم يلق الاهتمام برأيك ؟

● طبعا هناك نوعان من القراء والدارسين أولهما يرى بأن الشعر الحديث هو غاية الغايات ، أما الاخرون فيريدون الهجوم والنيل من الشعر الحديث ..

والكتاب كان حريصا على الشعر الحديث لانه حريص أيضا على وجود الشعر الحقيقي الاصيل ، ولا يمكن أن يكون هناك شعر حديث الا في مجرى الشعر العربي الاصيل ان الشعر العربي يحاول أن يجدد نفسه بحيث يكون قريبا من اللغة المتداولة بين المثقفين العرب اليوم ، لقد توارت مفردات وبرزت مفردات أخرى بحكم البيئة والتقدم الحضاري ، لهذا يتخفف أسلوب الاداء الشعري الجديد من عبء الالفاظ المعجمية المهجورة ، ولا يغرق في الجماليات الشكلية ..

كذلك فان اختلاف التجربة اليومية للمواطن العربي اليوم عن تلك التي كان يعيشها منذ مئات السنين قد فرضت هذا التجديد ..

ولكن لا تجديد بدون معرفة التراث ، فالتجديد من صلب التراث ، ومن ناحية أخرى لا بقاء لهذا التراث دون تجديد ، تماما كما أن الجيل الجديد هو الذي يبقي على ذكرى الجيل الذي أنجبه .. اذا أصيب جيل بالعقم فانه لا يحكم بالفناء على من بعده فحسب ، بل ويحكم بالفناء على نفسه أيضا ، فان كان من الصحيح أنه لولا الاجداد ما كان الاحفاد ، فانه من الصحيح أيضا أنه لولا الاحفاد ما بقيت ذكرى الاجداد ..

نزار نجار ـ حماة





فروع ضالة

للشاعر : اسماعيل عدره

الى الاخ الاستاذ خليل الخلايلي ـ صاحب القلم العربي الحر

صديقي ٠٠ لا تعجب اذا الفرع أمحلا ، ... وعبر ظلام الفرع ، نجم تبتلا ،

صديقي ٠٠ لا تعجب ، فكم عق خافق ... دماه ، وكم بالزيف فكر تجللا !

تبصر ٠٠ مجد شعبا أضربه الهوى ... وجيلا سقته عجمة الشر حنظلا

أرادو الشمس الضاد تبقى كسيفة ... وودوا لها أن تضمحل وتأفلا ،

فمن قائل : ما الضاد الا بدواة ... وان لها في موطن الشيح ، موئلا

وليس لها في روضة العلم غرسة ... تضيء بنور الفكر ، للفكر ، مشعلا

ومن مدع بغيا بأن لسانها ... جفا شرعة الابداع رفدا ومنهلا

وعابوا أغاريدا حسانا لحونها ... من الشعر والانغام لله أرسلا

اذا البلبل النشوان غنى فتونها ... استحالت فتون الارض للارض ، بلبلا

نسوا أمة قالت لها الشمس : أشرقي ... على أيكة الفصحى ، فقالت : بلى ، بلى٠٠

نسوا يوم كان الغرب في الجهل مظلما ... فبددت الفصحى الظلام ، فأذهلا

فلولا لسان العرب لم يزه عالم ... ولولاه ما ولى الظلام وما انجلى

ولولا لسان العرب لم يثمر الحجا ... وما فاض عقل بالاخاء وما علا !

صديقي ، هل تبقى الغصون نضيرة ... اذا ما اترى الجذر اليباب ، واذبلا ؟

اذا عقت الورقاء أفياء دوحها ... تخطفها البازي ، فحل بها البلى !

صديقي ، فليبق اليراع سحابة ، ... تروي لسان الضاد غيثا ٠٠ منزلا

صديقي ، فلتبق اليراعة كوكبا ، ... يزيل ظلام الشك ، ولتبق فيصلا

اذا النبع لا يرويك فيض عطائه ... فلا كان للابداع أهلا ، فلا ، فلا !

(خليلي) ٠٠ لا شلت يمينك ٠٠ انها ... تشيد لمجد الضاد ، في الخلد ، منزلا !

سلمية ـ اسماعيل عدره

قالوا في عدد :

المملكة العربية السعودية

بقلم : مصطفى الخش

الاعداد الوثائقية التي تنشرها مجلة ((الثقافة)) بين الحين والحين ، ظاهرة صحية ، قل نظيرها في سائر المجلات الضادية . أذكر من هذه الاعداد : ابن زيدون، أدب الاردن ، والطبيب الشاعر وجيه البارودي ، وشاعر السيف والقلم خير الدين الزركلي، وأخيرا لا آخرا ((الادب في المملكة العربية السعودية)) .

في هذه الاعداد تعريف أيما تعريف ، بأشخاص كنا نجهلهم ، فأصبحنا نحبهم بعد أن تعرفنا اليهم . ذلك أن الجهل هو البلاء الاعظم الذي عانينا ونعاني منه الكثير . . وهيهات أن نحب وطننا الكبير ، بغير أن نتعرف اليه ونطوف في أرجائه ، ونقيم عرى الصداقة مع أبنائه ! . . وان دعاة الوحدة العربية لمدعوون الى زيارة بلادهم الواسعة ، شبرا فشبرا ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، برهانا على حبهم لها .

واذن ، فان هذه الاعداد تمهد للتعارف مع الادباء على الاقل ، ثم انها تضع لبنة سليمة وقوية في كيان الوحدة المنشودة ، وذلك هو الفوز العظيم لمجلة الثقافة التي تشيد على صفحاتها صرح « جامعة الادباء العرب »

١ ـ ميسم الاصالة

في أدب المملكة العربيـة السعودية ميسم الاصالة ، بجميع أبعادها ، سواء في النثر والشعر . ولا غرو

فالاصيل الاصيل يأنف شوطا

أن يبارز الا أصيـلا عتيقا(١)

بل لا عجب أن تكون الاصالة ديدن الادب السعودي، فحتام أن يغلب الطبع التطبع ، وفرض أن تكون الاصالة طابع الادب ، هناك ، وهل تنبت أرض الحجاز ونجـد غير الاصالة ؟ أوليست المنهل العذب لادبنا كله ، فيالقديم والحديث ؟ .. في القديـم ، كان سوق عكاظ ، وكانت المعلقات كأنها الكواكب ،فلما طلعت شمس « القرآن » لم يبد منها كوكب . ذلكم أن القرآن هو دستور اللغـة العربية وحارسها الامين على مر العصور !!..

ان من لم يتل آيات الله البينات ، لا يحسب أديبـا بين الادباء العرب .. وكما أن المعلقات أبجديـة الشعر العربي ، فان القرآن أبجدية اللغة العربية ، وبغير مغالاة فلا مغنـاة من تعلم هاتين الابجديتين ، على السواء ، وقبل كل شيء ، لمن شاء أن يصبح كاتبا أو شاعرا .. ثم ان الارض التي أخرجت هاتين الابجديتين ، لا يمكن بحال من الاحوال الا أن تشد عليهما بالنواجذ، فلا تسمح لاحد أن ينالهما بسوء .

٢ ـ في القصة

القصة الاولى والوحيـدة في هـذا العدد لفاطمـة الحناوي تحت عنوان « العرجاء » وهي ذات نزعة انسانية بحتة ، ممزوجة بنفس اسلامي صرف كمثل قولهـا : « يا لله من هـول الفاجعـة » و « ليسامحك الله علـى أخطائك » و « ان هذه ارادة الله » و « اللهم لا شماتة في المرض » و « ولكن هذه مشيئة الله « لله في عباده شؤون» وأخيرا هذا المقطع : « هناك حيث لا ينفـع الانسان الا عمله .. فاللهم اجعلنا مـن عبادك صالحي الاعمـال » وهذه كلها نوافل لا يجيزها منطق العصر .

ويلي هذه القصة خواطر بقلم خيرية السقا بعنوان « النار والنور » و « الهدوء الممل » لمحمـد المنصـور الشقحاء و « وهم الوحدة » لابراهيم ناصر الحميدان ، هي الى القصص أقرب ، بعكس خواطر « كفى بالمـوت واعظا » لعبد الفتاح أبو مدين و « حدثوهم عن الوفاء » لعبد الله جفري الذي أشار ، بفخر ، الى رواد النهضة الادبية السعودية الحديثة وهم : الشيخ عبـد القدوس الانصاري والشيخ حمد الجاسر والاديب محمد سعيد العامودي .

٣ ـ في المقالـة

المقالات متنوعة ، تزين بالرصانة وعمق التفكير مع متانة وجزالة في السبك . وتهدف الى التعريف بالادب والثقافة في المملكة العربية السعودية ، بغير أن تشوبهـا أية دعاية سياسية رخيصة ، ذلك أن مجلتنا « الثقافة » هي مجلة ثقافية أدبية ـ كما يحمل عنوانها ـ وهيهات أن تحيد عن الثقافة والادب ، بقليل أو كثير .

وهذه المقالات ان دلت على شيء ، فانما تدل على أن في الجزيرة العربية ، عامة ، أدبا لا يقل جودة ، في الشكل والمضمون ، عن الادب في سائر الاقطـار العربيـة .. الفارق الوحيد هـو أن التعثيم كان سائـدا على ذلك الادب وقد زال . أكثر من هذا فان مجلتي « الفيصل » و « المجلة العربيـة » في السعودية ومجلة « العربي » في الكويت ومجلة « الدوحة » في قطر تعتبر ، بحق ، أرقى المجلات الفكرية والادبية في العالم العربي . والفضـل في ذلك يعود الى حكومات هذه الدول التي تنبهت الى أثر الفكر والادب في مضمار التقدم .

٤ ـ في الشعر

القصائد العشر التي حفل بها العدد ، تبشر بالخير العميم .. ولكننا نريد لشعرائنا في العربيـة السعودية أن يكونوا في مستوى أسلافهم : شعراء الجاهلية والعصر الاموي ، كيما يعود لواء الشعر مرفوعا في ربوعهم .

على أن هذه القصائد تنبض بالجودة والاصالـة . أذكر على سبيل العد ، لا الحصر ، النفس القومي الصافي الذي جادت به قريحة الشاعر الامير عبد الله الفيصـل في « صناجة العرب » كمثل قوله :

---

(١) من شعر بدوي الجبل .

مـن شاعر عـربي كل غايتـه
أن يظفر العرب بالآمال والغلب

وها هو الشاعر محمد حسن فقي يتساءل : كيف نلهو ؟ فيلخص فلسفة اللهو باسلوب متين السـبك ، جزل العبارة :

كيف يلهـو مـن ليس يـدري
أفي اليوم رداه أم في الغد المجهول

نحن اسرى طباعنا .. وهدى الطبع لزام .. كفيه المرذول

رب كسب يضيق به الكاسب .. كالغل في يـد المغلول

وخسار تخاله خـير كسب ما تبـدى للخاسر المتبـول

وأكرم بابراهيم خليل العلاف في اعتزازه بـ « لغـة الفرقـان » !

كم صاهرت من ثقافات مترجمة
وأنجبت من حصيف الفكر ألوانا
وكم تربص مفتـر بغفوتهـا
فعـاث يوسع تمزيقـا واثخانا
ثم استفاق على يـأس وقهقرة
مخيبـا سامه القرآن خذلانا

وأي والله لقد سامه القرآن خذلانا وشنارا

وبصوت جهـوري ، يشير زاهـر عوض الالمعي الى هويته التي تعانق العروبة والاسلام :

أنـا في الشرق وفي الغرب معـا
ديني الاسلام والفصحى لساني
نحن من بغـداد من أم القـرى
من دمشق الشام أو من قيروان
وحـد الاسـلام مـن راياتنـا
وبنانـا للـدنى خـير كيـان

سؤال : أولم يتأثر بالعبارة المقدسة : « كنتم خـير أمة اخرجت للناس » ؟ و « لا يعز العـرب الا بالاسـلام ولا يعز الاسلام الا بالعرب » كلاهما توأمان ، ولـو كره المنافقـون !!..

وطالما أننا في مجال الشعر ، فلا بد من الاشارة الى كلمة الناقد عزيز ضياء ، في تقريظ وتحليل أشعار أحمد قنديل ، من حيث أصالة الانتماء الى الارض . هـذا الانتماء الذي عبر عنه عزيز ضياء أبلـغ تعبير بمـا يلي وبالنص الحرفي :

« والانتماء الى الارض يختلف عن أي مذهب مـن مذاهب الفكر وايديولوجياته . وهو يمتاز عندي بأنـه الاصدق والاكثر احتواء لكل المدخر في هذه الارض من تاريخها ومثلها وقيمها .. بل هو الانتماء الـذي يجب أن يكون المنطلق لاي انتماء عداه .. يكفي أن تصدق في انتمائك الى الارض لتنتمي الى هذا المدخر من التاريخ والقيم ، فيصعب ـ بعده ـ أن تنتمي الى الوافد المسموم والطارىء المدسوس من هذه المبادىء والمذاهب الفكرية التي تشهد الساحة العربيـة كلهـا أصبحت تجتـاح النفوس وتستعمر العقـول ، فتفصمها عـن تاريخهـا وقيمهـا ومثلهـا ، ليصبح الـولاء للمذهب ودعاتـه وللايديولوجيـة ودهاقنتها ، ذلك هو الانسلاخ عـن وشائج المواطنـة ، يتستر وراء شعارات نخطىء حـين نستهين ببريقها وقدرتهـا على التخريب وحين تأخـذ ـ بالظاهر ـ من تراجعها وانكماشها »

فهل من يسمع ؟؟ ..

٥ ـ في الكتب

كان من المستحسن أن يتضمن هذا العدد عرضـا شاملا للمنجزات التي حققتها النهضة الادبية والاجتماعية في المملكة العربية السعودية سواء بعدد المدارس والطلاب والمدرسين السعوديين ، أم بعـدد المكتبات والنـوادي الادبية والرياضية أم بعدد الجرائد والمجلات أم بقائمة الكتب الصادرة بأقلام الكتاب والشعراء السعوديين مع اعطاء لمع عن كل هذه الاصناف بحيث كان يجب أن يكون العدد دليلا لا يستغنى عنه للباحثين .. ولولا الاعلان عن « المكتبة الصغيرة » على شقة الغلاف الاخير ، لما عرف القارىء أن في العربية السعودية دار نشر للكتب .

على أن البحاثة الاستاذ حسان الكاتب قدم عرضا جذابا عن كتاب « الجيولوجيا الاقتصادية والثروة المعدنية في المملكة السعودية ، هو الاول من نوعه في العلوم الجيولوجية الاقتصادية العربية . وقد انتفع به طلاب كلية العلوم في جامعة الرياض .

بيني وبين الدكتور محمد عبده اليماني قاسم مشترك هو الاعتراف بالجميل نحو الوالدين ، قبل كل شيء : اذ أهدى مؤلفه النفيس الاول الى والديه ، مثلما فعلت عندما أهديت باكورة مجموعتي القصصية المتواضعة « نجمان يهويان » الى والدي اعترافا بجميلهما وبرا بهما .

٦ ـ المكتبة الصغيرة

وللانصاف ، فان المكتبة الصغيرة تعتبر دعامة قوية من دعامات النهضة الادبية والفكرية للعربية السعودية ، وان صاحبها الاستاذ عبد العزيز الرفاعي يعتبر ، بحق وحقيق ، حامل لواء الادب والفكر في المملكة . والدليل مؤلفاته السبع من مجموعة عشرين كتابا قام بنشرها على نفقته الخاصة .

وان تسميته لها بالمكتبة الصغيرة لانصع دليل على تواضعه الجم . بالاضافة الى أن عمله الجبار ـ هذا ـ لا نظير له ، مما يستحق عليه لقب « المحسن الاديب » وحبذا لو يحذو حذوه سائر الادباء الاثرياء .. على أن فضل السبق يبقى ممهورا باسمه لا ينازعه فيه منازع

٧ ـ عشق المتنبي

وقد لفت نظري عشق الاستاذ عبد العزيز الربيعي للمتنبي حتى أنه سمى ابنه « أبا الطيب » . وليس في هذا العشق أية غضاضة بل على العكس فان فيه فخرا أي فخر .. ولعلي أثني على كلام الربيعي بأن المتنبي لم يكن قرمطيا ، ولكنه ـ وبالتأكيد ـ كان فاطمي المذهب ، بدليل تعصب أبي العلاء له ، وهو الآخر كان فاطميا .

ودليلي على ذلك الرسائل الخمس المتبادلة بين أبي العلاء وداعي دعاة الفاطميين المؤيد في الدين أبي نصر بن أبي عمران ، والمطبوعة في المطبعة السلفية بالقاهرة عام ١٣٤٩ هـ للناشر محب الدين الخطيب ، مما لاتترك هذه الرسائل زيادة لمستزيد عن حقيقة مذهب أبي العلاء حيث كتب رسالتين جوابيتين منها ، وهو مريض مرض الموت .

٨ ـ الخاتمة

وفي الختام ، لقد استمتعت بهذا العدد وشرح مني الصدر : اذ تنسمت فيه أرج النبوة وعطر الاسلام . او ليس الاسلام اعظم ثورة فجرتها الكرة الارضية ؟ ومن غير العرب حمل لواء الحضارة الاسلامية ليعم نورها سائر أرجاء المعمورة .. وصدق المؤرخون الفرنسيون حين يقولون : « ما كان العرب فاتحين وانما كانوا رسل حضارة » .

وأعظم بالنبي العربي حين خاطب الناس : « أنا عربي والقرآن عربي ولسان أهل الجنة عربي .. من أحب العرب فقد أحبني ومن أحبني فقد دخل الجنة » !!.. وانسياقا مع هذا النطق الكريم ، فنحن عرب ومسلمون ومصممون أن نظل عربا ومسلمين !..

مصياف ـ مصطفى الخش

رسائل الاصدقاء

عزيزي الاستاذ مدحة :

أطيب التحية : فرغت الآن من قراءة عدد الثقافة الخاص بتكريم أستاذنا عمر يحيى . الغبطة التي شعرت بها من قراءة وصف احتفال التكريم والكلمات والقصائد التي ألقيت فيه كبيرة . وأنا لم أدر بهذه الحفلة الا بعد أن أقيمت وأحسب أن كثيرين مثلي في هذا . فمن سوء الحظ أن المهيئين لها والداعين اليها لا يعرفون مدى التقدير الذي أحمله لهذا المربي الكبير ومدى الفضل الذي أدين به اليه ، فلم يخطر ببالهم أن يعلموني بالتكريم أو أن يدعوني اليه . اذن لكنت سعيدا بأن أكون في عداد من حضروا الحفل بين أصدقائه الكثر وتلاميذه القدامى والجدد . اني واحد من الآلاف الذين عرفوا الاستاذ عمر يحيى مدرسا قديرا وانسانا كبيرا . فلقد تتلمذت عليه في مدرسة التجهيز بحلب التي أصبحت تسمى ثانوية المأمون . وكان اعجابي بشخصه وبعلمه كبيرا ، كما شملني هو من عطفه ورعايته وتشجيعه بما نمى ثقتي بنفسي وعزز هوايتي للادب ودفعني الى متابعة طريقي فيه . لست الوحيد في هذا على كل حال . فان طلابه من مختلف الاجيال وفي مختلف البلدان قد حظوا منه بمثل ما حظيت ، ونالهم من فيض علمه ونبل خصاله مثلما نالني .

وفي الكلمات التي ألقيت في حفل التكريم اشارات عديدة الى هذا ، وهي غيض من فيض . فللنخبة المثقفة في حماه خالص الشكر على اقامتها هذا المهرجان الذي أثلج صدر كل محب ومقدر للاستاذ عمر يحيى ، وما أكثر محبيه ومقدريه . ولمجلة الثقافة خالص الشكر كذلك على اصدارها هذا العدد الخاص الذي أثبتت فيه خطب الخطباء وقصائد الشعراء ، وجعلت منه سجلا لعاطفة الوفاء التي عبر عنها أصحابها نحو من غذاهم بعلمه ومعرفته وضرب لهم أنبل الامثلة بوطنيته ودأبه وانفته .

الرقة ــ عبد السلام العجيلي

قالوا في عدد :



الاستاذ الشاعر مدحت عكاش .. صاحب «الثقافة» النبيلة :

في الخريف كل اشجار الغابـــة تصفر وتتساقط أوراقها . الا الصنوبر فانه يرتدي حلة خضراء طيلـة الفصـــول .

وفي موسم الرياح والبرودة . كل العصافير تغـادر أعشاشها ، وتهاجر الى بلاد الدفء الا النسور ، فانها تظل محلقة في الاعالي تتحدى الاعاصير ، وتقلبـــات الزمـــن .

وفي دنيا الكتابة . كـل الصحائف والاوراق تبهـت ألوانها ، وتتلاشى خطوطها وتعابيرها الا الكلمة الطيبة ، فانها تبقى مقدسة على الارض ، مباركة في السماء .

ولقد كنت ــ انت ــ وكانت الثقافة . وستظـل ، الصنوبرة الخضراء ، والنسر الاشم ، والكلمة الصادقة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين باذن ربها .

الاستاذ الشاعر . يا مبدع الحرف المجنح ، والصورة الموحيـــة :

لقد عرفتك شاعرا تصوغ ذوب مشاعرك ، صبوات واحاسيس ، تقدمها لعشاق الشعر في آنية من زهـــر ملون . تتضوع عطـرا يملأ الاجـواء ، انداء ساحرة ، مخدرة ، لذيذة .

وعرفتك أديبا فذا تقدر الادب وتحترم الادباء ، تسعى وراءهم في شتى الاصقاع والانحاء ، للكشف عنهم ، وازاحة النقاب عن الاقلام المبدعة ممن يعيش حملتها في الاماكن البعيدة ، والنواحي المغمورة . ولست أجـــد حالك في ذلك الا كحال غواص ماهر ، يبحر في أعمـــاق اليم . بحثا عن اللؤلؤ المكنون . فكم من لؤلؤة كـــانت شاردة ضائعـــة أخرجتها وصقلتها ثم زينت بها صـــدور الحسناوات ، بعد أن نظمتها مع اترابها في عقد نفيس ؟!

وعرفتك صحافيا ناجحا . تعطي الصحافة أنقـى صفاء نفسك واكثر لحظات عمرك ، لتقدم للناس ــ كل الناس ــ رأيـــا حصيفا ، وفنـــارا هيفا . عليه مسحـــة انسانية من روحك ونفحة روحية من اصالتك . فكنت الجندي المجهول ، الذي يضحي بدمه من اجل بقـــاء احبابه .

وكانت (الثقافة) في رحلة ربع القرن الثالث مـــن زماننا منبرا حرا لكافة الاقلام الصديقة . يغرسون فيها بنات افكارهم وعرائس احلامهم ، حتى غدت كالحديقة الزهراء ، تحوي من كل فن بهيج .

فكانت (عكاظا) اكاديميا للشعراء ، و (مربدا) حرا لنقلات المبدعـين والمجددين من الفواة والانقياء ، محققا بذلك حرية الفكر ، وحفظ حق الشاعر في القول والانشاد .

وكانت (الثقافة) المدللة . ملتقى ادبيا ، ومنتدى يتلاقى عشاق الحرف الموشى والكلمة المؤنقة عـــلى رحابه . فتتعانق الآراء ، وتتدافع الافكار لتشكل جداول ربيعية تفيض على حقول الخصب والابداع لتنتج لنـــا رطبا جنيا ، وثمرا شهيا ، لذة للناظرين والآكلين .

استاذي أبا عاصم :

لئن كنت أسفح اشواق المحبة امام نفسك الرضية ، وأظهر حبي المنداح كروائح الطيب امام ناظريك . فاسمح

لي ـ أيها الشاعر المبدع ـ أن اجعل من كلماتي هذه رسولا كريما يحمل اليك آيات الاعتراف بالجميل ، وفاء وتقديرا وعرفانا . بما لك من اياد بيضاء على الادب والادباء من ابناء هذا الجيل .. ولعلها توفيك شيئا ضئيلا من الحق الكبير الذي هو دين لك في أعناق الكثيرين ، ولن ننسى أبدا أن العشرات من الكتاب والادباء الذين أصبحوا رواد هذه الايام. هم الآن ، وهم الآن يتربعون على عدد من الزوايا الصحفية والاركان الادبية وقد تتلمذوا في مدرسة (الثقافة) وجربوا أقلامهم الغضة الفتية على صفحاتها الحبيبة . وأعني (ثقافة) أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ، فكنت لهم الاب الذي احتضن فلذات كبده ، والام المعطاء التي أمدتهم بنسغ الحياة ، فيسرت لهم في جميع الحالات سبل النشر وذللت لهم مصاعب البدايات . فنما ريشهم فوق ملاعبك بعد أن كان زغبا . وتعلموا الطيران بعد أن علمتهم كيفية التحليق .

أستاذي أبا عاصم .. يا من تثنى الريحان على أنغام شعرك فتمايل سكران ثملا .. ان ما يدفعني لسفح عبير الشوق هذا . هو ما طالعتنا به في الايام الاخيرة من اعداد الثقافة الشهرية ، وما حوته من ثمرات الاقلام الكريمة التي حفلت بكل ممتع مفيد ، ولعل أبدع هذه الاعداد وأمتعها ما جاء خاصا بالشاعر عمر يحيى أحد كبار أساتيذ هذا الجيل ، فكنت الوحيد الذي أنصف هذا المربي الجليل والشاعر الاصيل الذي خدم الامة ستين عاما أو يزيد . مناضلا عن شعبها ، ذائدا عن حياضها ، معلما ومربيا لطلبتها وأبنائها . ممتشقا في كل ذلك حسام القوافي . يصبها كشواظ من نار على رؤوس المرتدين والغزاة . فنفي وسجن ، وشرد وعذب.

فلله ما أحسنك وأنت تكرم علما من أعلام الامة !..

ولله ما أكرمك يوم وقفت في (حماه) النواعير عشية حفلة التكريم معلنا على رؤوس الاشهاد قيامك بأعباء طبع ديوانه الشعري الذي لم تقم أية جهة أخرى قبلك بمثل هذه المبادرة الرائدة .

ولله ما أطيبك وأنت تعلن لنا . ونحن متحلقون حولك ـ لفيفا من كتاب الثقافة ـ في مكتب الثقافة أنك ستبذل سعيك جاهدا لاقامة مهرجان تكريم ، واصدار أعداد خاصة من الحبيبة المدللة (الثقافة) عن نديم محمد ورفيق فاخوري وعبد السلام العجيلي وأمثال هؤلاء الفنانين من الادباء الذين آلوا على أنفسهم خدمة الامة في فكرها وتراثها . فمنحتهم الامة محبتها وثقتها بعد أن كرمت في السابق الدكتور وجيه البارودي وعمر يحيى ...

أستاذي الكريم :

وأخيرا .. أجدني عاجزا عن ايفائك ما تستحق من تقدير ووفاء ، فلقد كنت من البداية معلما لنا . فتحت لنا قلبك فغمرتنا بالحب ، وفتحت لنا صفحات الثقافة فطالعنا عليها صفحات عمرنا . ولا يسعني وأنا أنهي هذه الكلمات الا أن أقول : انك أشعلت للاجيال شعلة متوهجة ، وأضأت طريقا كان مظلما . وتركت للتاريخ ملفا حيا من الوثائق الهامة في الادب والفكر . سيذكره الجيل اثر الجيل ، ويكفيك فخرا أن الثقافة التي غذيتها من نسغ روحك ورحيق فنك قد أصبحت مرجعا هاما من المراجع الموثوقة التي تؤرخ للحركة الادبية في القطر ..

فسلام عليك يوم بدأت

وسلام عليك وأنت تواصل رحلة العمر

وسلام على أسرة الثقافة ، محررين وكتابا

وبورك العمل والعامل

ولن يضيع الله اجر من احسن عملا ...

أريحا ـ محمد قرانيا

الى الاديب محمد زهير الباشا ـ الجزائر

قرأت مسرحيتك ، من تحت .. لتحت .. وفتنت بالموضوع الذي تعالجه وتشرحه امام القارىء ، وتظهر خفاياه في الادارة ، وسحر سيطرته ، ولكني أختلف معك في هذا الاختيار الذي ألزمت به بطل المسرحية « شمسي » الموظف النظيف في المؤسسة والوحيد الذي يشقى من أجلها . فاللحظة الواعدة التي وافته خلال عملية التدجين قد لا تعود عليه وفي مثل الظروف التي يعيشها ، فالرفض السلبي موقف الهامشيين في الحياة فعندما أرفض موقفا ما علي أن أحدد البديل الذي يغني مسيرة الحياة ويدفعها قدما الى الامام . أما الوقوف عند حد الرفض فقط فتلك حالة اليأس والبوار لا ارادة التغيير والحياة ، وأحب أن أعلمك وأنت تخوض غمار معركة التعريب في الجزائر الشقيقة . أن مسرحيتك قد أعدها وأخرجها الاستاذ حسن كريمة وقدمتها فرقة اتحاد الصناعات الغذائية بدمشق على مسرح اتحاد العمال في المهرجان الثالث للفنون المسرحية . وقد سقطت ، ولم تلفت نظر المراقبين أو لجنة التحكيم ، وكانت من جملة الاعمال المرفوضة في المهرجان .

دمشق ـ عبد الكريم دندي

الى الاستاذ سميح عيسى ـ دمشق

لماذا وسمت كتابك الاول « دائرة الشوك » بمجموعة قصص وكل ما فيه يمت الى الادب الوجداني بألف سبب فاللوحات القصصية هي الى الحكايات الانسانية أقرب ويكفي أن يحس القارىء بالقضية التي تطرحها . قضية العذاب الانساني بين القول والفعل ، وبين النظرية والممارسة ، بين الوعد والناتج. تلك المسافة التي ترهق كاهل انساننا العربي منذ بداية النهضة وما تزال . ويكفي أن أحس من سطورك الصدق والعاطفة وظلال الرغبة الانسانية حتى أدرك أن بيانك الى الشعر أقرب والى الكبرياء أيضا . وكفى الكاتب ذلك يا صديقي حتى يدخل قلوب الآخرين . فالصدق والكبرياء جناحا الشعر الانساني مذ كان الشعر يطرب الانسان ، ويهز أعماق أعماقه .

دمشق ـ عبد الكريم دندي

الى الشاعر خالد محمود خالد ـ حماه

ياصديق الحرف الموسق في دنيانا ، قرأت « الشرارة » على ضوء شمعتي المتهالكة ، وكنت أحس عبر قصائدك رغبة التكون الشعري في هذا العالم الواسع المضطرم . والذي نبحر في أنهاره جميعا ونطوف عبر أقاليمه :

خذني لبحار آمنة
كعيون حبيبي
لا تحيا فيها الاسماك الكبرى علقا في أفواه الفقراء
خذني لكروم لم تعصر بعد كصدر مراهقة عذراء
خذني لعوالم تنبض بالحب الصافي .. بالاطيار

وهذه الرغبة دافع قوي على طريق الابداع ، ولكنها لا تكفي مهما حاولت الاجتهاد في التعبير اللغوي من ايقاع وقافية

عيني مقطوعة
ويدي مقطوعة
وفمي جرح خثره كالكي الملح تحدى جوعه
من كان كذا
كيف يفاوض في بيعه

وأهمس في أذنك أن نقل المعاناة تحتاج الى الصدق الفني ، وحتى تصل الى هذه الغاية . عليك بقراءة افكار الرواد وتجاربهم بأناة وصبر :

وأسيح كطير .. أهمس .. ألمس .. لكن
فأهيم .. أجوع .. أعرى

أتفانى مثل العاشق .. أقرأ في عينيه جميع تواقيع الاحباب ولكن لا ترميه يد

ولقد أعجبتني قصائدك « تلك لغتي ـ هي القلب ـ تمني فأنت البهار فليستيقظ الحطاب ـ الشرارة » ورحلت عن واقعي بهما . وكلي أمل أن تتأنى في نشر قصائدك ضمن « ديوان شعر . فالقصيدة في الكتاب تصبح اشارة اليك . ودليلا . سواء تقدمت أم تأخرت . ويكفيك جرأة طرح الكتاب في السوق قبل النشر في الصحف والدوريات .

دمشق ـ عبد الكريم دندي



● في وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ، تم التوقيع على اتفاق ينص على تزويد مديرية المطبوعات الجامعية في الجمهورية الجزائرية بثمانية عشر ألف نسخة لمئة وستة وعشرين كتابا من كتب التراث والدراسات الفكرية والفلسفية والادبية والفنية . يعد هذا الاتفاق لبنة في توثيق الروابط الفكرية في الوطن العربي . وفرصة سانحة ليطلع المفكرون في البلد الشقيق على آفاق الفكر والمعرفة في القطر العربي السوري .

● « كل عام وأنت حبيبي » مجموعة شعرية جديدة صدرت في بيروت للشاعر الكبير نزار قباني ، تضم في صفحاتها ال / ١٧٦ / تسع قصائد جديدة .

وللشاعر نفسه صدرت في بيروت أيضا مجموعة عنوانها « يوميات مدينة كان اسمها بيروت » وتضم في صفحاتها ال / ١٩٢ / أربعا وخمسين يومية .

● عن اتحاد الكتاب العربي في دمشق صدرت رواية عنوانها « طائر الايام العجيبة » لخير الدين الذهبي . الفنان احسان عنتابي صمم غلافها .

وعن الاتحاد أيضا ، صدرت رواية أخرى جديدة للاستاذ هاني الراهب ، عنوانها « ألف ليلة وليلتان » .

● « النجوم » مجموعة قصصية للمرحوم عبد الله عيد صدرت عن وزارة الثقافة في دمشق . أصدقاء الكاتب ومحبوه هم الذين جمعوا هذه القصص من المجلات ومن بين أوراقه الخاصة .

● الكاتب الاردني أحمد أبو مطر نال درجة الماجستير من جامعة الكويت على رسالته «عرار الشاعر اللامنتمي» وعرار هو الشاعر مصطفى وهبي التل : تناولت هذه الرسالة آثار الشاعر وصورا اجتماعية وسياسية وأدبية .

● « دراسات في الفكر العربي المعاصر » عنوان كتاب من تأليف ماجد فخري رئيس دائرة الفلسفة في الجامعة الامريكية ، صدر عن دار النهار . تدور هذه الدراسات حول مجموعة من القضايا الفلسفية التي تعني طالب الفكر العربي فلسفيا ودينيا .

● عن مكتبة الانجلو المصرية في القاهرة صدر كتاب « الشخصية » للاستاذ أميل توفيق موجه العلوم في وزارة التربية المصرية ، سبق للمؤلف ان نشر اجزاء من هذا الكتاب في بعض المجلات العربية .

● دار المعارف في القاهرة التي تصدر سلسلة اقرأ بدأت باصدار سلسلة أخرى بعنوان « كتابك » اشترك بكتابة هذه السلسلة كبار الباحثين والمفكرين في مجالات العلم والادب والفن .

● في القاهرة تألفت جمعية العقاد الادبية ، يرأسها الاستاذ عامر العقاد الذي كشف جوانب كثيرة كانت مجهولة في حياة الكاتب الكبير الراحل عباس محمود العقاد تضم هذه الجمعية نخبة من كبار الكتاب والشعراء والمفكرين .

وجماعة أدبية أخرى تكونت في القاهرة تضم شعراء وأدباء ، قدامى ومحدثين ، اسم هذه الجمعية « كتابات الغد » .

● المكتبة الصغيرة التي يصدرها الاستاذ عبد العزيز الرفاعي في الرياض ، توالى نشاطها ، فقد صدرت عنها أخيرا دراسة للاستاذ عزيز ضياء عن الشاعر السعودي حمزة شحاتة، كشف فيها الكاتب عن قيمة هذا الشاعر التي لم تعرف من قبل .

● خليفة الوقيان الاديب الكويتي ، صدر له كتاب عنوانه « القضية العربية في الشعر الكويتي » الكتاب من منشورات دار السلاسل .